كتابات جديدة

اللعب خارج الحلبة

"قصة طويلة"

تأليف :
خيري شلبي

كتابات جديدة

اللعب خارج الحلبة

قصة طويلة

تأليف : خيري شلبي

الهيئة المصرية العامة للتأليف

١٩٧١

اهـــداء ..

الى ابنتى العزيزة « ريم » طفلة عام ١٩٧٠

خيرى شلبى

- ١ -

ـــ أما شبعت نوما ؟

هكذا قالت زوجته وهى ترمقه بطرف عينها ، بينما ترفع شيئا من هنا وتقذف شيئا هنـاك بعصـبية ، ثم تهش ـــ لا يدرى ماذا ؟ .. لكن أغلب يقينه أنها تهشه ، هو والنوم والخمـول وركود الحظ من الشقة ! ، العجيب أنها تعرف كل شىء ، بل وتعرف أيضا أنه سوف يرحل الى بقعة أخرى من هذه الأرض تسعهما معا ، مع ذلك تقدمت نحوه ، بشقاوة حبيبة ، نزعت الغطاء عنه دفعة واحدة ، فأحس بأن أشياء كثيرة فى أعمـاقه تنقلص وتنكمش ، وأشياء أخرى فى ذهنه تتلاشى كأن لم يكن لها وجود من قبل ، زوجته تعرف أن محاولاته أصبحت مبتذلة جـدا ، وتتعدى حافة الامتهان بأميال طويلة ، فلمـاذا توقظه بهـذا الحماس ؟!

ـــ اسع يا عبد •• أسع معك •

ذلك القول الصباحي السرمدى الذى صاغة الناس فى بلدهم على لسان الله ، لطمته به زوجته دون أن يجاهر بالسؤال ، • ثم تركته وتوغلت فى الحجرة ••

فتحت باب الدولاب ، فانزاح الباب جانبا ، ثم أخذ يتقهقر و « ويزيق » بينما يسحب معه الجثة الراقدة ، الى أعماق بعيدة جدا ، رأى نفسه ممددا على سريره هنا •• لـ •• داخل مرآة الدولاب ، منظره كجثة فاقدة الحيـــاة • انه يتقزز من نفسه • زوجته تمر ، متأبطة حمـــلا من الملابس المتسخة ، متجهـــة بها ـــ لا شك ـــ الى دورة المياه ، به رغبة عنيفة فى احتضانها •• آه لو يقبلها فى كل بقعة من هذا الجسد ، ما هـــذه المرارة فى حلقه ؟ •• أتكون ريق النوم ؟ • انحنت الزوجة فى المرآة أمام السرير تجذب من تحته شيئا ، صدرها يندلق من فتحة القميص، اندلقت المرارة فى صدره ، استوت الزوجة واقفة وبيدها بعض الشرابات والمناديل • توقفت برهة ، استدارت ، مضى جسدها يرتعش ويغيب فى الأعماق البعيدة : هه •• قبل أن يدخل بها فى بيت الزوجية كان يشفق عليها من قسوة ذراعيه ! • •

•• قالت حماته يوم عقد قرانه :

ـــ اننى أعطيك هدية •• جوهرة •

قال وهو يتحسس رأسه الصلعاء :

ـــ وسوف أضعها فى عينى •

قالت وهى تربت على كتف ابنتها فى زهو :

ـــ أتجد مثلها فى البندر ؟

قال وهو يبتسم فى عرفان بالجميل :

ـــ كل شيء فى البندر مزيف •• ولا حقيقة له !

قالت وهى تختلس قبضة كبيرة من اللحم ثم تزيحها أمامه :

ـــ صدقت •

أومأ برأسه موافقا ، تفصد العـــرق على جبين ابنتها وهى تتصنع الشبع والقناعة بعد لقيمات صغيرة تثاقلت فى مضغها ، رمقتها أمها بغبطة ، ثم هزت رأسها فى ثقة مدللة :

ـــ اتفرج عليها فيما بعد ، حينما تلبس الفساتين مثل أولاد البندر •

صار يمضغ الطعام فى لا مبالاة وهو يردد :

ـــ ليس أجمل منها كما هى •

ـــ هل ستحنو عليها كأبيها وأنا ؟

ـــ أمنيتى أن تحنو هى على •

ـــ الزوج هو الذى يحنو •

ــ لكننى لست مجرد زوج • اننى أريدها أما •• أولا وقبل كل شيء •

اكتست ملامح ابنتها بلون الخجل ، لمعت فى عينيها نظـرة تقدير ، وثمة وعـد خفى ينام فى طرف نظرتها الجانبية التى رمقته بها •

ها هى ذى قادمة نحو نفسها فى المرآة ، لا تزال خطواتهـا الرشيقة تتعثر فى خفر عذب ، فى الأعماق البعيدة جلست عنـد قدميه عاقدة ذراعيها فوق صدرها ، تتربع على شفتيها بسمة لم ير أعذب منها فى حياته ، آه انها تعذبه ، لشد ما يحترق !

•• سأله الطبيب يومها :

ــ هل اجتمعت بامرأة من اياهن ؟

قال له : أبدا ، لم يحدث فى حياتى أن التقيت بغير زوجتى، انها أول جسد نسائى يحتوينى • وقال له أيضا : انه لم يحدث أن أصيب بمرض من « هذه » الأمراض • هز الطبيب رأسه هزة عارف خبير ، وأومأ له بنظرة فهم منها أنها تقصد تعريته من ثيابه الداخلية ، استسلم لنظرته دون أدنى اعتراض •

ونزع الطبيب الجوانتى المعقم من أصـبعه ، ثم عاد يسأله باهتمام أفزعه :

ــ هل تبذل فى عملك مجهودا شاقا ؟!

— جـدا :

أشار له بالجلو س فجلس ، سحب دفتر الروشتات ، أسرع هو قائلا :

— هل هنالك أمل ؟

— طبعا ، لا شيء فيك سوى رطوبة مستبدة !

تململ فى جلسته ، ألسنة اللهب تنفذ اليه كالخوازيق ، يده تتحسس جسم الكرسى تحاول التأكد من أنه حقيقة كرسى جلدى وليس بلاطة المنتزه العام التى كان — منذ سنوات — يجلس عليها طول الليل فى العراء ..

— شف يا أخى ، أنت تحتاج الى جلسات كهربائية عديدة ، وبعد ذلك نرى .

وقال المحقق محذرا اياه ، ومهددا بلهجة ذات معنى واضح.

— سوف نجلسك فوق اللهب ان لم تعترف !

قال للمحقق انه لا صلة له بجريمة القتل التى وقعت فى المنتزه، وأن حقيقة وجوده فى ذلك المكان فى تلك الليلة أنه بلا بيت . وأنه — تقريبا — ينام فى هذا المنتزه كل ليلة ، أسكته المحقق بطرقات صارمة من قلمه فوق سطح المكتب ، وأمره بعدم اللف والدوران ، وأضاف قائلا :

— يبدو أنك فى شوق الى أن تحضنك « العروسة » !

قال الطبيب وهو يقدم له الروشتة مع ابتسامة مدربة :

ـــ ستحتضن العروسة بشهية تفوق الحد •• باذن الله !

صفر الكرباج فى الهواء • قال العسكرى :

ـــ قم •

نهض الطبيب واقفا • بحركة مهذبة أشار له نحو باب جانبى :

ـــ يمكن أن تأخذ دورك الآن •

ـــ فى ماذا ؟!

ـــ الجلسة الأولى •• من حسن حظك أن حجرة الكهرباء خالية !

ـــ ألا نتفق أولا ؟

ـــ علام ؟

ـــ يجب أن أنظر الى امكانياتى أولا •

ـــ أليس معك نقود الآن مثلا ؟

ـــ ولا أجزم أنها ستكون موجودة غدا !

ـــ أنا تحت أمرك على كل حال ، حينما يكرمك الله • عد الى، مع السلامة !

هبت نسمة قادمة من الحجرة الخلفية ، صافحت كيانه فتنفس،

استسلم لخدر لذيذ ، اهتزت الستارة وارتعشت الملاءة على ساقيه ، النسمة تشتد عنفا يكاد يراه بعينه ، يكاد ينهض لايقافها. تعدته ، صفقت درفة الدولاب ، تهشم السكون ، تهاوت المرآة قطعا مبعثرة على الأرض ، تهاوى فى رقدته ، أقبلت زوجته ، بحث عن عينيها ، فى عينيها احساس غامض ربما بالفجيعة ، حبات لامعة من الدموع تنحدر على خديها ، الحرارة تنسحب من أطرافه ، مع أن شيئا كالنار أحس به يحرق أذنيه • وجه زوجته خارج لتوه من الفرن ، حملق فيها بعيون مزغللة ، يخيل اليه أن وجهها يحترق بالفعل ، لابد أنها ازدادت تشاؤما ويأسا ، فجأة وجد نفسه يقترب منها ، ارتكنت على الحائط بجانب السرير ، ارتعش ذراعه وضغط على صدرها ، تهاوت على صدره بلا ارادة منها ••

انسلت من بين ذراعيه فى حركة أدرك أنها يائسة ، أدرك أيضا أنه نسيها فوق صدره لحظات طويلة ، لا بد أنه خلالها كان مجرد طوق يكتم أنفاسها ، هم بالاعتذار لكنه « استبوخ » نفسه ، وهبط ذراعه فلم يكمل الطريق الى كتفها ، ارتعشت الابتسامة الذابلة على شفتيه ، ثم انسحبت وبقيت الرعشة تهز شفته السفلى ، دهمه شعور بالرغبة فى البكاء بعنف لكنه أمسك أعصابه ، فى انكسار يائس راحت زوجته تجمع نثار المرآة ••

عربة كارو تقعقع فى الحارة ، ضجة ترتفع حولها :

ـــ هنا ؟

ـــ نعم .

ـــ يا من هنا ، هذا هو عفش الساكن الجديد الأستاذ « فلان الفلانى » . أخبر هذا أم واقع ؟! . أن يسكن فلان الفلانى فى هذا الحى الشعبى الفقير مسألة تستحق النظر ، وتقدم مسرعا الى حجرة البلكونة المطلة على الشارع ، فى الطريق اكتشف أن فضول زوجته أكبر من فضوله ، زاحمته على البلكونة ، عينها هى الأخرى زاحمت عينه على قطع الأثاث فوق العربة ، الأثاث فاخر ، ينتصب فوق العربة فى عجرفة شامخة ، يخيل اليه أن قطع الأثاث هذه تشمئز من الحى بأكمله . منظرها لا يريحه ، المرارة فى حلقه ، بصره ينسحب ، زوجته تلتصق بجدار البلكونة وتأخذ راحتها فى التفرج ، لعلها استغرقت فى حلم ، آلاف الدبابيس تثقب صدره وتوخزه فى جنبه ..

ـــ ادخلى ياست

هكذا صاح فى زوجته بلا سبب واضح ، استدار عنقها نحوه بنظرة مندهشة ، على ملامحها استنكار يسأله ، ماذا تريد ؟ ، أحس أنه يغتصب ابتسامة جادة وأنه يستعير لهجة يحس مقدما بسخفها .

ـــ هناك غرباء قادمون ، ولا يصح طبعا أن يروك هكذا بقميص النوم !

سخرية تتمدد فى عينيها ، عنقها يستدير ببطء ولا مبالاة ، راح يكمل الفرجة ، كبرياؤه مهيضة :

ـــ ادخلى قلت لك ••• وارتفع فى أذنه طنين صرختة ، سجت نفسها ودخلت •• جاء الى هذه الشقة لاهثا وليس فى حوزته سوى « كليم » رخيص ومكتب بلا كرسى ، أشاع فى الحارة أنه فى انتظار العروس بجهازها ، جاء فى أعقـــابه هذا الخطاب ••

« زوجى العزيز ، أبعث لك بأغنية « أمل حياتى » ، يا أمل حياتى ، وأتمنى لك حظا سعيدا ، وحياة محترمة ، كما أتمنى لك روقان البال ، وبعد : وصلنى رسم الشقة فى خطابك ، وهى شقة جميلة مثلك ، بس يا خسارة •• أنت تقول انها فى حى فلاحين وتفتخر بهذا ! فما هو الفرق بالنسبة لى ؟ هل سأخرج من فلاحين الى فلاحين ؟! • على كل حال لا يهم ياحبيبى مادامت هى أعجبتك وما يعجب حبيبى يعجبنى ، وعلى فكرة ، « الجدع اللى كان « داير » على قبلك أخذه التجنيد • وراح اليمن وبعث لأهله أشـــياء كثيرة مما عندكم فى أم الدنيـــا •• أظن يا حبيبى أنك ستحضر لنا بوتاجازا مثل الولاعة التى بعث بها لأبيه ؟ ••

•• لم أكذب والله يازوجتى حينما قلت لك نعم ، كنت أنوى

حقيقة أن أجىء به وبغيره بل وبما لا يخطر لك على بال ، وأظنك تذكرين فولى يومها بالتحديد ، قلت لك ان الطريق مفتوح أمامنا ، وكل ما يمكن أن نحلم به ليس ببعيد أن يتحقق ، والآن اذا كان اليأس قد زحف الى أعماقك وعشش فيها فهذا وحده كفيل بأن يميت فى أعماقى كل أمل جديد ..

« .. بنت عمى اشترت بعض الفساتين الآتية من غزة ، واشترت شيئا يسمونه خلاط . أصلها بنت بندر من صغرها ومتعلمة ..

لم تتحقق أمنيتك يا حماتى ، أو على الأصح لم تتحقق بكاملها :

ـــ نفسى ومنى عينى أن أزوج ابنتى فى البندر لأفندى موظف يقبض ماهية كل شهر .. لكى يفهم قيمتها !

.. أما الأفندى فقد جاء ، وأما المرتب ففى ضمير الأحداث، على كل حال لقد أفهمتك كل شىء قبل أن تقع الفأس فى الرأس، فان كنت تشعرين الآن بالخيبة فما أشد خيبتى من ذلك ، كنت أحمقا اذ اضطلعت بالتجهيز وحدى دون دفع المهر نقدا ، من فرط خيبتى التزمت بمهر عينى قيمته بيت مجهز أربعة وعشرين قيراطا ، فلم تمهلينى وعملت على استنفادى فى سيل لا ينفد من الهدايا فى سبيل الظهور بمظهر «الفشخرة » الكذابة ، أصابتنى

حمى البحث عن أموال ، لا لشيء الا لسد حلقك حتى يصمت عن الكلام ولكى أرضى لابنتك كل تطلعاتها ، فما جمعت مالا ، ولا احتفظت بمركزى الأدبى ، أنا الآن فى نظر الجميع أناضل فى سبيل قضية خاسرة ، ألسنة السخرية تلعق قفاى ، القضية تتميع وتفقد جديتها ، تهبط ، يتغير منطوقها من (حق الحصول على الفرصة فى اثبات الوجود والكيان) الى : (الرغبة فى جمع الأموال وفى التكسب) . ان هذا لا يحتمل

« .. و .. سأقول لك سرا . لولا أننى هددت أهلى بحرق نفسى لردت أمى شبكتك وقبلت شبكة الآخر .. »

.. طول عمرك هكذا أيتها الغبية الجاهلة ، الحقيرة :

ـــ أنت أعز من ابنى زاهر ، أتعرف هذا أم لا ؟!

ـــ طبعا

ـــ البلد لا تزال تذكر حكايتنا قبل ثمانية عشر عاما

ـــ البلد لا تنسى شيئا ، وفى نفس الوقت تنسى كل شىء !

ـــ كنت تتمنى ألا أكون متزوجة ، لكى تتزوجنى !

ـــ كنت طفلا غريرا .

ـــ أذكر أنك وددت أيامها لو تطلقنى من زوجى لكى تتزوجنى !

ـــ اخرسى يا فاجرة .

ـــ أنت طبعا لا تنسى هذا .. ولا تنسى معزتك عندى

.. قلت اخرسى يا فاجرة . لقد غررت بى أيامها وساعدت على انتشار الاشاعة حبا فى تعميق شعورك بالجمال وبالتفوق ، حتى لقد اتهمك البعض أيامها بالتهور ..

ـــ أنا بكل صراحة كنت أحبك ولا أزال ..

.. الطامعون فيك وطارحو الشبك عليك تساءلوا أيامها : هل نضبت البلد من الرجال ؟

ـــ لهذا سوف أعطيك ابنتى دون مقابل ! ..

.. صائدة ! صائدة ماهرة . بلطية عتيقة « تتلعبط » باغراء مذهل مطير للعقل ولكن فى عنف ميئس ، ذات زعانف حادة كالمشارط ، ولعلها أتقنت فنون المشاغبة والزوغان من فرط ما انطرح عليها من شبك ، أتراك حقا قد أعطيتنى ابنتك مجانا ؟.. ما أفدح الثمن يا عاهرة ! ..

ـــ وبصراحة أيضا هناك أناس كثيرون شبكوها ، آخرهم ذلك الذى استعد لتقديم روحه من أجلها .. لكننى أريدها لك .. لك وحدك !

.. هكذا ؟ .. وماذا أيضا ؟ ها هو الأفندى المحترم قد وقع فى يدك أيتها المفترسة ..

ـــ فقط ما عليك الا أن تعقد القران وتجهز ما تقدر عليه

ـــ وحامل النقود فى الزكائب ، أتفرطين فيه ؟

« .. الحكاية أنه رجع ثانية ، وكلم أبى فى الموضوع وعرض عليه مهرا لى ، نقودا تشترى فدان أرض . وها هو ذا قد ذهب وحمدت الله أنى لم أشعل النار فى نفسى ، لقد أحببتك يا حبيبى وليس بمعقول أن أنفصـــل عنك ، لأنه ليس من المعقول أن تشبكنى أمى كل يوم لواحد ، ثم تخترع أى خلاف بينها وبينه فتلفظه وأشرب المقلب فى النهاية ، فهذا عائد من رحلة ذهبية ، وهذا من العاملين فى الكويت ، وهذا من تجار الشام وغزة ، حتى المشرف الزراعى ، عزمته على الغداء والعشاء وغســيل الهدوم أيضا ، حتى ضابط النقطة ، « والبلوكامين » ، حتى « الواد » رفعت ابن زليخة الذى طفش من أهله وراح اشتغل فى المحلة ، وهكذا من مدرسين الى مخزنجية الى فلاحين من ذوى الأملاك ، المهم أن تبعث لى بساعة ذات أسورة ذهبية كالتى جاءت لبنت عمى ، ان خطيبها مدير جمعية تعاونية وهو يبعث بالهدايا للعائلة كلها ،وهى عندها ــ يا صلاة النبى ــ من صنف الراديوهات خمسة أو ستة ، بعضها للحائط وبعضها لليد وبعضها فى السلسلة ، أما أنا فليس عندى شىء ! ...

صيحة اهتمام وفزع :

— على مهلك يا أخ ، التليفزيون ثمنه غـالى •• احمله بالراحة •

تطوع ابن صاحب البيت ، وبشجاعة مبالغ فيها حمله على صدره بكل حذر ثم احتضنه جيدا ومضى متراقض الخطوات نحو الشـقة ، كاد يتعثر فى كثير من الداخلين والخـارجين ، المدفوعين بحماس أعمى ، والمتطوعين للخدمة دون مبرر مفهوم•

•• يومها تلكأ العربجى فى دخول الحارة ، ولما تشدد معه تقدم بضيق حتى اقترب من فتحة الباب ثم توقف من جديد ، هبط متثاقلا وراح يفك الحبال من حول المكتب ، نظر هو الى العربجى بحيرة ويأس لما رآه منتظرا ، كاد يصرخ فيه بأن يتحرك ويساعده على الأقل فى انزال الكتب ، لكنه لم يفعل •

قال « عربجى اليـوم » الواقف أمام البيت ، فى حماس ، مستنكرا :

— دع عنك كل شىء يا بك • الحـارة مليئة بالرجال والحمد لله •

أهذا اذن هو فلان الفلانى ، السـاكن الجـديد للشـقة « التحتانية » ؟ ، انه بالغ الرشاقة والأناقة الى حد يفوق نجوم

السينما ، ملابسه بسيطة لكنها تبدو باهظة الأثمان ، وتبدو أيضا غريبة عن الوطن ، كل شيء فيه تقريبا يبدو غريبا عن الوطن ، العيون كلها ترقبه ، تتوقف عند كل شيء فيه ، سلسلة ذهبية تتدلى بين أصـابعه بحشـد من المفاتيح لا شـك أنها لآلاف الأبواب ..

ــ تراك .. تر .. ا .. ك .

باب الشباك المطل على الشارع بجوار البلكونه ، من الذى فتحه بهذا العنف ؟ . رفع وجهه المغيظ فى اتجاه الشباك ، وجه زوجته يطل متلصصا ، لا يدرى لماذا اشتعلت النار فى جوفه ، أيحاول منعها من جديد ؟ . يجب أن يظل يضربها حتى تفقد وعيها ، لكن ، لا ، لا داعى للفضيحة الآن ، شيء عجيب ، ان فضولها بلغ حدا لا يدرى لماذا يزعجه ، انها تكاد تميل بنصف جذعها من الشباك ، بل تكاد تهبط . يجزم الآن أنها تفتح هذه الثلاجة ، وتتخير من خيراتها ما تهوى ، وأنها تتمدد على هذا السرير وتتقلب على هذه المراتب الرقيقة الفخمة ، لا ، انها تكاد تقفز دفعة واحدة لتغيب فى حضن فلان الفلانى ! ..

ساقاه ترتعشان . أين صوته ؟ ..

ــ ا .. اح .. احم .. و .. وبعد ؟!

صاح فلم تنتبه لشيء ، هى ليست هنا طبعا . هى بالتأكيد

فى حضن فلان الفلانى ، هذا الشرود الحالم الذى يكتشف ــ لأول مرة ــ أنه احدى مواهب زوجته ، والذى ــ مثله مثل كل مواطن الجمال فيها ــ لم يتم له الاستمتاع به •• أيمكن أن يرتمى هكذا فى حضن هذا الوافد الجديد ؟! ••

ــ وبعد ؟

لم تهتم بصرخته • نظر « فلان الفلانى » • من فوق كرسيه وعبر صدره أزاح النظارة البرسول عن عينيه ، ثم قذفه بنظرة فيها كثير من الاستنكار ، لكنه مغلف بابتسامة ترحيب غاية فى اللباقة والنعومة ، وقال :

ــ مساء الخير يا كابتن •

كابتن ؟ أيظنه لاعب كرة ، أو بطلا رياضيا ؟

ــ أهلا •• مساء النور •

ثم شده الخجل والارتباك الى داخل الشقة • رأى نفسه متجها الى زوجته مباشرة • خطر له أن يشدها من شعرها المنطرح على ظهرها ، وقف برهة يتأملها ، ظهرها يشبه جدولا ينقسم الى ضفتين مستطيلتين ممتلئتين ، ينتهيان بهضبة مرتفعة تنحنى وتنشق هى الأخرى الى ضفتين ، بصره يتوقف عند انحناءة ساقيها المستندتين على الحائط تتدلى من أسفلهما قدماها الدقيقتان ،

وترتعش فوقهما أطراف الدانتلا ، قرع طبول جوفاء يدمدم فى جوفه ،تكاد تجرفه دوامة ، هوى الى مكتبه ،تمنى سيجارة يشعلها ، نهض واقفا ضائقا ، راح يتجول فى الشقة ، كل شيء فيها أخرس ، كئيب ، لا شيء فيها يتوافق مع الآخر ، ولا حتى مع نفسه • السرير يختلف عن الدولاب ، والدولاب يختلف عن التسريحة ، وهى بدورها تختلف عن الكومدينو ، كل شيء من طراز يختلف عن الآخر ، بعض الكراسى مرقعة بقطع غيار من أنواع أخرى مختلفة • مجموعة من الصور تشغل الحوائط ، تبرقشها • صور ، صور : امرأة عارية ، الجيوكندة منزوعة من مجلة ، طه حسين ، العقاد ، فاطمة رشدى ، أنتونى كوين ، نجيب محفوظ ، شتاينبك ، آرثر ميللر ، جيفارا ، ممثل أجنبى فى دور سبارتاكوس ، صورته هو بالكارتكاتير ، سلامه موسى ، لطفى السيد ، عبد الله نديم ، سيد درويش ، لوحة لطومانباى معلق فى المشنقة على باب زويلة ، لوحة للسد العالى لفنان مصرى راحل نال الجائزة ومات ، صورة للمثال مختار ، مارتن لوثر كينج ، أحمد بن بيللا ، نيكروما ، ناظم حكمت ، تشيكوف ، جاكلين كيندى ،مارلين مونرو ، نجيب الريحانى ، ألفريد نوبل ، سارتر ، ألبير كامى ، باسترناك ، جوركى ••

عاد ثانية الى مكتبه • جلس ، أمامه تمثال من الرخام لأحد الزعماء الكبار فى أفريقيا ، لم يعد موجودا فى الحجرة من جسد

زوجته سوى ساقيها ،تصنع المرح ، وجذبها من أسفلهما بغتة وبشيء من العنف يضمر الغيظ ، لم يهتز منها سوى قميص النوم، تموج فوق الهضبة العالية المشقوقة الى ضفتين ، جف حلقه . يكاد ينفجر ، سحب المسطرة خلسة ، بعنف صبيانى هوى بها فوق الهضبة ، فلم يبق من المسطرة سوى قطعة صغيرة ، وقفت زوجتــه متنمرة ، ارتفعت يده ، بعنف وكراهية هبطت على صدغها ، يده الأخرى تتوقف فى منتصف الطريق ، طنين الصفعة ينسحب ببطء من الشقة ، تكة الولاعة الرونسون يصل صوتها من أسفل الطريق ، صمت يرين على كل شيء ، الدموع تفر من عين زوجته ، بصق على الأرض فى قرف ، مضى الى البلكونة انطلقت عينه خلف عصفور غاص فى الأفق البعيد .

دخلت زوجته وقالت بلا مناسبة ، والأغلب أنها كانت تحدث نفسها :

ـــ لا يصح أبدا أن تعطى الواحدة نفسها لواحد لا تعرفه من قبل ، لكنه النصيب ، أحنى رأسه لهذه الملاحظة العابرة وتركها تمر فى سلام ، رغم احساسه بأنها أصابته فى النخاع بعد برهة صاحت بانفعال :

ـــ كل شيء أصبح متعبا ؟!

نظر اليها مستطلعا دهشا ، باب الدولاب « زرجن » فى يدها وامتنع عن الفتح ، قال لها :

ـــ بالراحة ياستى ، بالراحة ، لا شىء يجى بالعنف أبدا :

فخبطت الباب بعصبية شديدة وتركته مشوحة بيدها فى يأس :

ـــ اذن فلندعه حتى ينفتح وحده !

وجلست على حافة السرير مضطربة :

ـــ حتى الدولاب يلزمه تحايل ؟!

وتعمدت أن تشيح بوجهها عنه فى عدم اهتمام ، غير مبالية به

ـــ ربما يريدنا أنقبل قدميه هو الآخر !

تنازعته مشاعر كثيرة وغامضة ، أشعل سيجارة ، لذله أن يظل يرقب عود الكبريت وهو يحترق حتى النهاية •

•• اندمجت الزوجة فى اطراقة شاعرية جعلتها تبدو له من بعيد فى « كادر » رومانسى بديع ، خطا نحوها معتزما الجلوس بجانبها ومداعبة شعرها ، أحست هى بذلك لا يدرى كيف أحمر وجهها وانتفخ بالدم ، خيل اليه أن الأشواك نبتت على بشرتها ، بينما شملتها حالة تحفز كالتى تسيطر على القطة حينما تزداد انكماشا على نفســها لتنقض مرة واحــدة ، تراجع على

الفور ، سحب الكرسى ووضعه بجانب الشباك ، جلس على حافة مسنده ، السماء تحجب الشمس ، على البعد مئذنة تخترق السحاب ، تأملها قليلا ، لا يدرى لماذا تبدو له كالمهجورة • انطلق من داخلها سرب من الطيور أخذ يرفرف بجناحيه ويدور حولها ثم اندفع يحلق فى السماء •

«عكرشت»زوجته فى باب الدولاب مرة ثانية ، ضربته بكفها كما كانت تضربه على كتفه أيام الخطوبة حينما تنوى أن تجره الى مشاكستها • طق باب الدولاب طقة لها ذيل حاد ، انفتح ، لكنه« هبر » شريحة كبيرة من جبين الدولاب شوهته تماما ، مع ذلك لم تبال بها ، ربما لاحساسها بالانتصار على الباب ، غير أنها مالبثت أن تراجعت بتعاسة كالمصدومة ، ناظرة الى الأرض ، فلعلها لم تجد نفسها فى بطن الدولاب لأول وهلة كما كان يحدث عادة قبل تهشم المرآة ، بصرها يتجول فى الأرض كأنه يبحث عن المرآة ، تمايلت صائحة : أى •• ثم تهاوت على طرف السرير ممسكة قدمها بين يديها متأففة ، وراحت تخلع من جلدها قطع الزجاج ، حول بصره عنها وهو يطرقع أصابعه ويتمطع ، انبعث من أسفل الحارة موسيقى راقصة فى جلجلة و « سبهللة » ، برز خلالها صوت فلان الفلانى مفرقعا بأصابعه فرقعات نشـــوانة بسحر الايقاع ، مرددا : « الأنس خير من الغم » • صوت الحاجة الكبيرة يتبســل قادما من قاعتهـا الجوانية ، بكلمتها

السرمدية ، التى كثيرا ما انتزعته من وحدته فى الليل ، جدران حجرته ما تزال ترجع رنين كلمتها ، متوسلة ، مبتهلة ، حزينة ، يائسة :

— يا كريم •• استر عبيدك من الفضائح يا كريم •

- ٢ -

ارتفعت الزوجة بمنكبها عن الأرض ، وفوق ركبتها أسندت كوعها ، وفوق كوعها أراحت خدها فى استسلام لتأمل طويل أسيف ، وبيدها الأخرى أمسكت عودا أخذت تنكش به الأرض كأنها تستطلع الغيب ..

نظر الى فخذها المتربع على الأرض ، طوقت نظراته ثنية فخذها عند الركبة وقد انطرحت فوقه ظلال الدانتلا ، فبدت كطاقة سحرية يشع منها ضوء ودفء ، تقود الى طريق بللورى أملس ، استيقظت جدته من سباتها وعادت تحكى من جديد ، عن طاقات كهذه كانت تتوهج فجأة فى جوف الصحراء أمام الشاطر حسن ، وكان هو بذكائه لا يعبأ بها ، فهو يعرف أنها لا شك خدعة من خدع الجنية : تضىء له المدخل فقط ، فتصور له الخديعة أن هنا ممرا مضيئا يوصل — لا بد — الى قصور

وحياة حافلة ، فلايلبث أن يدخل متهيج الأحاسيس ، لكنه سرعان ما يصطدم بالقلاقل فى كهف مظلم لا سبيل الى الخروج منه بحال ! ..

حاول الفرار بسرعة لكنه لم يستطع ، سحب عينه عن هذه الفجوة المضيئة ومع ذلك لم تفارقها الصورة ، مرت برهة ، اكتشف خلالها أنه يغوص ويغوص الى نهاية هذا الممر الرخامى، بدأ بصره يصـــعد الى أن توقف عند جذع الزوجـــة وأحاط بخصرها النحيل ، وقرر أن يدخل التجربة للمرة المليون ربما ، فلعل وعسى ، كيف يبدأ ، انه لفى حيرة ، رفع رأسه عن المخده ، وضعه على فخذ زوجته ، فخذها يتململ تحت رأسه بشىء قليل من الضجر يجد لذة فى عدم الاهتمام به ، عنقه يتصلب ، يتثاقل رأسه فوق فخذها ، الفخذ يستحيل تحت رأسه الى كتلة من اللحم البارد ، دبيب أسراب النمل يتمشى فى عروقه مقبلا من رأسه الى قدميه فى صفين متقابلين فى اتجاه عكس ، اعتدل هو ، رقد على بطنه مستندا بكوعه فوق المرتبة ، سلط بصره على عينى زوجته ، لعله يبحث فيهما عن شىء خفى ، عينا زوجته بئران مظلمتان يلمع فى أعماقهما البعيدة انعكاس لضوء باهت ملىء بالغموض ، يده تمتد فجأة وتحيط بذقنها تهزه فى مداعبة ، فى رأسه تبتسم كعادتها ، وعلى غير عادتها لا تبتسم هذه المرة ! بل ها هى ذى تهز وجهها فى اتجاهات مضادة لهزات يده لذقنها فى

تمرد عنيد •• ثم تتراجع برأسها وينثنى عنقها ويتلوى •• فتسقط يده فى حجرها ••

يده لا تزال ملتصقة بحجرها ، لعلها انفصلت عن جسده وتنتظر من يرفعها عن هذا المكان ، تململ الفخذ فاضطربت يده فوقه وتمايلت . دمدم فى أعماق الشقة صوت القطار المتوجه الى أحشاء الجبل قادما من بعيد يرج الكون ويهز الجدران • النوافذ تطقطق بصوت كالنقرزان ، ينتظم الحجرة ايقاع رتيب كصوت الماء يغلى فى قازان كبير ، يده تتدحرج ، يخيل اليه أن السرير هو الآخر يتدحرج فوق الأرض ، هبطت زوجته عن السرير ومضت فى برود له لسع النار ، انسحبت بقايا ظلالها عن أرض الحجرة ، زلزلة القطار تبتعد بالتدريج ويخف وقعها ، تستحيل الى فحيح يهدهد الكون صداه •

لم يحدث أن زاره الحاج فى شقته قبل هذه المرة ، لحظتها خاف بحق • بالغ فى الحفاوة به وأكثر من ترديد كلمة : يا حاج، كان يخشى أن ينفتح ويلبخ أمام زوجته ، وعذره معه ، فهو يطالب بحقه فى الايجار وحساب النوتة عن شهور طويلة مضت•

— هيه • كيف الحال يا أستاذ ؟

— تسير •

أقسم ألف يمين بالله وبحياة الشباك الذى وضع يده عليه

أنه لا يستطيع وضـع شيء فى بطنه ، وأنه قرف من القهاوى والشايات والسجائر ، مع ذلك جاءت الزوجة بفنجان القهوة ، ابتسم وهز رأسه كالمغلوب على أمره ، فنجان القهوة جاء بلا « وش » فكان منظره مخجلا ، لكن الحاج أراحه وشفطه دفعة واحدة ، ثم أشعل سيجارة ..

ـــ أقول يا أستاذ ..

صاح هو فى ضجر :

ـــ شاى يا أولاد .. نعم يا حاج .

اعتدل الحاج فوق الكرسى « فزيق » تحته صارخا .. عاد يهز رأسه مبتسما :

ـــ أرى أن الشقة فوق احتمالك !

وبسط كفين مفرطحين متخمين بالشعر والدم ، لا يدرى هو كيف لم يكفه ثقلهما فوضع فى أصابعه تشكيلة من الخواتم الفضية والمعدنية لا يقل حجم الواحد عن صامولة كبيرة ، أخذ الكفـان يتمايلان وينبسـطان ، ويروحان ويجيئان فى الفراغ الفاصل بين الحاج وبين .. هو عديدا من المرات ، ويهبطان ويرتفعان بتشكيلات متنوعة من أصابعه ، كأنه يعزف الكلام بنغمة معينه كلها نشاز حتى اذا قارب الانتهاء راح يكثر من الترديدات ويقوم بدور الكورس أيضا ، فيردد ويشرح ويعلق

على ما سبق أن أداه ، موال طويل زف به « هو » من شقته الى الشقة السفلية التى يسكن بها الآن « فلان الفلانى » فهى رخيصة تناسبه ، ثم أضاف وهو يتأهب للانصراف :

ـــ ليس يعد هذا ما يريح فيما أظن فما قولك ؟

قال « هو » كأنه لم يسمع :

ـــ اشرب الشاى

شوحت يد الحاج فى نفاد صبر : هبطت على كوب الشاى:

ـــ هذا ما فى ضميرى •• وانت حر !

ثم وضع يده على الأكرة ، قام هو وفتح له الباب دون أى تعليق سوى :

ـــ مع السلامة يا حاج

وعلى غير عادته أغلق الباب فورا •

اقتربت زوجته من السرير وزغدته فى كتفه برفق ، استدار اليها مغيظا ، قالت :

ـــ ساكن الشقة المجاورة يريدك •

خير يارب •• وانتفض جالسا على السرير ، ثم خرج الى الصالة ، فى حجرة المكتب وجد الساكن المجاور جالسا فى انتظاره

يعبث ببعض الكتب ويتفرس فى صفحاتها ، ما ان رآه حتى أزاح الكتاب عن وجهه ونهض مسلما ، ودون أن يضيع وقتا :

ـــ الحاج يطلبنى فى المحكمة .

نظر اليه فى شبه ذهول ، اتسعت ابتسامة الساكن المجاور عن أسنانه الصفراء ، قال :

ـــ سأعرف كيف أربيه !

قال له وهو يجلس أمامه متابعا :

ـــ كم شهر فى ذمتك ؟

ـــ سبعة أشهر .. ليس أكثر !

ـــ ياه .. وما الذى أخرك هذه المدة كلها ؟

ـــ نفس الذى أخرك يا سعادة البيه !

أحس كأن ريحا عاتية تهب فتنزع عنه ملابسه ، فكر لبرهة سريعة فى أن يفعل شيئا يوقف به هذا الشخص عند حده قبل أن يعمد الى اهانته ، لكن الساكن المجاور عاجله موضحا :

ـــ أعرف أنك تنتظر مجىء اللجنة ، فقلت أفعل مثلك وأمتنع عن الدفع . قال محافظا على استمرار هذه الاشاعة :

ـــ نعم ، وقد تكون هناك خلافات أخرى .

— على أى حال سوف أربيه ! ..

— عدم المؤاخذة .. ألى دخل فى هذا الشأن ؟

— نعم .. أن تكون معى .

— لست أفهم !

— الحاج يرفض مجىء اللجنة ، لكننى متمسك بحقوقى، وأعتقد أنك أنت أيضا ..

— لا داعى للتسرع .

— لم يعد هناك وقت ، ثم انه قد بدأ بالعدوان !

— ليس أفضل من التفاهم وديا

— أتعنى أنك لن تناصرنى فى استدعاء اللجنة ؟!

أحس بشىء من الحرج ، قال ﻟ ﻫلا داعى لمثل هذه الحلول العنيفة ، وقال له أيضا ان الحاج يعاملنا معاملة خاصة ولا يجب أن نغدر به انما الواجب أن نظل كرماء معه فربما يدفعه هذا الى التراجع عما انتواه . اندمج الساكن المجاور فى ضحكة مزقتها الكحة ، وعلق بأن الحاج لا يعاملهم هذه المعاملة بدافع من كرم أخلاقه بل كنوع من الجبن أو انعدام الحيلة ، ذلك لأنه يعرف أن موقفه حساس وأنه اذا لم يحسن معاملتهم فسوف يشكونه بمجىء اللجنة ، واذا جاءت اللجنة فستقصم وسطه ، أولا بغرامة باهظة لتهربه من العوايد ، ثانيا بخفض قيمة الايجار الى

النصف ، ثم أضاف الساكن المجاور بأن مثل هذا الرجل لا ينبغى لهم أن يرحموه ، ثم تريث قليلا وعلق بأنه اذا كان هناك «أحد» سيسامحه فهو شخصيا لن يغفر له هذه السقطة ! ..

لم يجد عنده تعليقا على هذا ، لكنه وهو يودعه عند باب الشقة وجد نفسه مرغما على أن يقول للساكن المجاور :

ــ لنا لقاء آخر فى هذا الموضوع .

توقف الساكن المجاور على عتبة الباب معلقا يده فى الهواء قبل أن يسلم عليه :

ــ متى ؟ ..

ــ ليس الآن على أى حال ، لسوف أتصل بك .

قال الساكن المجاور وهو يهز يده بعنف :

ــ لسوف يلعب بنا اذا تركناه هذه المرة !

قال بسرعة ، ضائقا :

ــ يا أخى لا تخف ، أنا المسئول !

تلفت الساكن المجاور حواليه ثم مال على أذنه :

ــ الحاج بدأ يتمرد علينا ..

ثم هز رأسه مشيرا بابهامه الى الخلف عبر كتفيه :

ــ أصل الحكاية من هنا ، وليس من الحاج !

وغمز وهو يتجه الى شقته :

ـــ ستفهم فيما بعد !

اتخذت الملاية طريقها الى المطبخ ، بوجه متجهم رمت صباح الخير ، ما الذى حدث ياترى ؟ لقد علم أن زوجته حاسبتها وأعطتها حقها ، ليس لها فى ذمته اذن سوى بضعة أيام ليس من حقها التجهم بسببها قبل نهاية الشهر بل ـــ تمشيا مع الواقع الذى توافقا عليه سويا ـــ قبل حلول شهور أخرى قادمة ، فما هو سر هذا التجهم ؟! ..

اندلق الماء فى الزير ، اندلق فى كيانه دوى مزلزل ، جاء من المطبخ صوت كركبة . لا بد أن الملاية ترتب شيئا ما ، لكن ما الذى فى المطبخ يدعو الى الترتيب ؟! ، ان الحلل والأطباق والوابور فى وضعهم منذ أيام طويلة لم يحدث بشأنهم أى تغيير يذكر ! ، الأكواب تقرع بعضها فى عراك مستمر ، تتجاوب معها أصوات الحلل . خدره احساس لذيذ مبعثه هذه الأصوات المطبخية ذات الرنين الشبعان ، تكاد لذة الاحساس توهمه أنه فى انتظار غداء فاخر تروح فيه الأطباـــاق وتجىء فى مراســــلات دبلوماسية بين المطبخ والمائدة ! ..

اقترب ظل ثقيل أخذ يزداد كثافة كلما اقترب ، رفع بصره ، الملاية تقف أمامه كعملاق أسود ، افتعل ابتسامة :

ـــ مالك ياست فلانه ؟

تسلح وجهها بخسة لم يعهدها فيها من قبل ، قالت وهى موقنة تماما أن هذا القول سيدهشه :

ـــ معك نقود ؟!

سقط رأسه فوق صدره بتنهيدة عميقة تغافلت عنها الملاية وأعادت السؤال بأكثر خسة :

ـــ أتعطينى اليوم نقودا ؟!

عاد ينظر اليها متأملا متفحصــا ويده توقع على الترابيزة بايقاعات لا معنى لها ، تركته ومضت هبدت الباب خلفها ، وقع المفتاح من ثقبه وانهارت « فازة » رخيصة كانت فوق البوفيه ، وتحطمت .

ظل يخيم على الشقة صوت صفير أحد من صوت الصراصير، يملأ سمعه بالطنين والرتابة ، قال : لا لشيء الا لمحاولة الهروب من سيطرة هذا الصوت :

ـــ مالها هذه المرأة يا أولاد ؟

جاءه صوت زوجته من حجرة البلكونة :

ـــ مال حالها !

ـــعاد الطنين الى أذنه ، قال مسرعاه

— هل حدث شىء بينكما ؟

ظهرت فى الصالة متجهة الى حجرة النوم ، قالت وهى تنظر اليه من خلال حزم الشعر الطويلة السوداء التى حجبت وجهها :

— لا ، ولكنها امرأة غبية !

ودخلت حجرة النوم .

سمع السرير يطقطق ، خيل اليه أن كلابا مسعورة تنقض عليه وتنهشه ، عاد الصفير الى آذنه ، قام تمطع ، ذهب الى حجرة البلكونة : الجبل يتسلق الأفق فى غموض سر مدى ، عاد ثانية الى الصالة ، دخل حجرة المكتب ، اصطدم بصره بساعته الملقاة فى اهمال وقد تحولت الى قطعة خردة ، حيث كفت عن السير من زمن بعيد ولم يعد يجدى فيها التصليح ، اصطدم بصره أيضا بأجندة قديمة تعود أن يدون فيها حسابات من النوع العسير على السداد مؤقتا ، فضايقه منظرها جدا ، يخيل اليه أنه قطعة من الحديد الخردة لا أهمية لها .

خرجت زوجته من حجرة النوم ، جلست فى ركن من الصالة منفردة بنفسها واضعة ساقا على ساق ، عاقدة ذراعيها خلف رأسها منطرحة على الكرسى ، طرف رأسها مرتكن على الحائط ، ملتصق بحافة صـــورة طومانباى المعلق فى المشـــنقة على باب زويلة ، انه الآن يحاول التقاط نظرتها الشاردة أو التلاقى معها

على خط يوصله الى نهاية شـوطها البصرى ، ذابت عينه على الصور المتقابلة وتشتت فكره بينها ، لا يدرى لماذا يرجح أن نظرات زوجته ربما تكون حائمة حول صورة العذراء مريم التى تحمل ابنها على صدرها ، الصورة التى أهداها اليه حماه فى أول زيارة وكان قد اشتراها من الحسين مع ورقة فى حجمها منسوخة عليها صورة من القرآن الكريم أصر حماه على أن يجعلها حجابا لزوجته ، عاد بصره فسقط على الأرض : كم هو مشفق على هذه الزوجة بالرغم من كل شىء ، لكم كان يتمنى ـ ولا يزال ـ أن يفعل من أجلها الكثير ، ولكن .. هل فى يده شىء ؟! .. أغمض عينيه . برهة ثم فتحهما ، يرغب فى التحدث الى زوجته ، رغبة ملحة ومفاجئة ..

ـــ فيم أنت مشغولة يا عزيزتى ؟

لم ترد ، ربما لم يخرج صوته ، فليتأكد من وجوده :

ـــ أقول فيم شرودك ؟

لم ترد . هل يصيح بالسؤال مرة ثالثة ؟ ، مسافة طويلة تباعد بينه وبينها .. فليدعها فى شرودها ، يبدو أنها لاحظت أنه يتبصص عليها كما لو كان يبحث عنها ، صاحت بلهجة رسمية حاولت ـ عبثا ـ أن تجعلها بيتيه :

ـــ أتريد شيئا ؟

شرد قليلا ثم قال :

ـــ لا •• شكرا !!

انطلق راديو الجيران مرددا ، مقتحما عليه الشباك الشرقى والمنور :

ـــ « اللى شبكنا يخلصنا •• لما رمانا الهوى ونعسنا •• والنبى يابا • »

ثم انخفض الصوت فجأة ، وتلاشى ، صوت الفقيه فى قاعة الحاجة الكبيرة ـــ تحت حجرة نومه مباشرة ـــ يرتفع مرددا بلهجته الممطوطة المضغومة الزاعقة :

ـــ « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليهما القول ، فدمرناها تدميرا »

واندفع صوت الحاجة الكبيرة يائسا ممرورا زاهدا :

ـــ ياكريم •• استر عبيدك من الفضايح ياكريم •

حينئذ كان هو عند الباب يقول لزوجته :

ـــ أنا خارج •

فقالت بلا تعليق :

ـــ مع السلامة •

عاد يقول لها :

ـــ سأروح للمسئول الكبير •• لأبحث معه المشكلة •
قالت من تحت اللحاف:
ـــ توكل على الله •

تأبط حقيبته الصغيرة المليئة بالأفكار والمقترحات ، والتى يدرك جيدا أنها غير صالحه للتعامل ، وسحب الباب خلفه ، ولم يكن يقصد أن يغلقه بهذا العنف !

ارتاعت زوجته وشهقت ، ودبت صدرها ببطء قائلة :
ـــ هذا ما حسبته !

ـــ اسكتى •• لا تصدعى رأسى أنت الأخرى •

هكذا صرخ فيها بلهجة دامعة الصـــوت مختنقة بما يشبه البكاء ، ثم التوت أمعاؤه ، أحس أنه يتقزز من نفسه ، هكذا أحاله الزحام الى مسخ شائه لا يمت للبشرية بصلة : كمسارى الأتوبيس يوشك أن يسقط من حلقه ، ليس فى طاقة البشر قدرة على الاحتمال فى مستوى قدرته الآن ، أليس نجاحا أن يتمكن من خنق الكمسارى فى حلقه كل هذا الوقت ؟! • لكنه ينتفض فى أعماقه لا يزال •• لو تقيأه لاستراح بلا شك ••

الأرض تهتز ، من صميم مأساته الكبرى يتمنى أن يتلاشى، الى حجرة النوم سارت زوجته خلفه ، شبشبها يطرقع فى قدميها،

رأسه يتلقى آلاما لا قبل له باحتمالها ، حافة السرير تستقبله بأنة ساخرة ، فى مرآة التسريحة المواجهة للسرير شاهد أمامه صعلوكا حقيرا متشردا لا بد أنه ضبط يسرق فأشبعوه ضربا وتمزيقا وتمريغا فى التراب حتى مزقوا ليس فقط ثيابه وجسمه بل معنوياته ومقدساته .

ــ أما كان الأحرى أن تأخذ وتعطى معهم بالراحة ؟

ثم تنهدت وشوحت فى الهواء برقة :

ــ منذ الصباح وقلبى يحدثنى !

ــ وماذا كان يقول يا ترى ؟

ــ .. أنك لن توصلها البر معهم ، أتظنهم زوجتك لكى ..

نظر اليها بهدوء مغلوب على أمره :

ــ أيمكن أن تسكتى ؟ تسكتى تماما ما دمت لا تعرفين شيئا .

ــ أتراك تظننى عبيطة ؟

ــ لا سمح الله لكن يجب أن تسكتى .

ــ كل شىء واضح !

ــ أنت لا تعرفين شيئا .

ــ أيفعلون بك هكذا دون سبب ؟

ـــ من هم •• تقصدين ؟ •• تكلمى •

ـــ الذين كنت معهم •• أصحاب الشأن طبعا ••

هل يضحك ؟ هل يبكى ؟ هل يشعل النار فى هــذا العالم الحقير ؟ هــل يدمر وجه زوجته وهــذا البيت وكل شىء فى الوجود ؟ هل ينتحر ويستريح ؟

ـــ من أجل لقمة العيش تهوى الجباه !

هوت جبهته اليوم فى الأتوبيس ، كان ذاهبا ليبحث عن لقمة العيش فمنعه الزحام وداسته الأقدام ، نعم أنا معك يا صغيرتى وها هى جبهتى فى الحضيض قبل أن تصل قدمى الى عتبة الحياة•

ـــ ألن تقول لى ماذا حدث ؟

ـــ ليس هذا وقته !

ـــ هذا بنطلونك الوحيد لم يعد يصلح •

ـــ لا جعله الله يصلح !

ـــ اه •• والقميص أيضا ؟!

ـــ اسكتى ياست •

ـــ لقد بهدلوك تماما •• ترى ما الذى فعلته فيهم !؟

ـــ اسكتى ياست •

ـــ أفى الدنيا أحد ينطح رأسه فى الحيط ؟

ـــ اسكتى يا جهنم .

ـــ بلوى .. هذا هو الذى راح يكتسى أرجعوه عريانا !

اخرسى يا بنت الحقيرة والا حطمت رأسك الثرثار !

واستدار وجهه منتفضـــا مذعـــورا ، الكمسارى فى مرآة التسريحة يخبط السقف بظهر القلم مهددا متوعدا ، شبح الزوجة يواجهه بحقد وتحد مشوحة فى وجهه بيدها :

ـــ لا .. الى هنا وأفقد صبرى ، أيطول لسانك على ؟

يشخط الكمسارى بصفاقة :

ـــ اخرسى يا امرأة .

صوتها ينشرخ ويتمزق :

ـــ قليل الحياء .. عديم التربية .

ازداد الكمسارى حدة وصفاقة :

ـــ نعم ؟ . أنا أردح لعشرة مثلك ، لمى لسانك أفضل لك !

لطمت خدها :

ـــ أما يكفينى هذا القرف ؟

ـــ ومن أجبرك عليه يا .. مدام ؟!

ـــ البيت طبعا .. البيت نهاية هذه الرحلة السمجة !

ـــ هكذا الأتوبيس .. ان كان يعجب !

— سجن •

— اذن فاستقلى التاكسى •

— لست أركب تاكسيات •

— اذن فانتظرى عربة المرحوم !

— وقح • سافل • لا يشرفنى البقاء فى هذا المكان حتى وان وصلنى الى الجنة !

يراها تتجه نحو الدولاب • لابد أنهــا ستجمع ملابسها • الكسارى يصفر • تتوقف العربة ، جسده ينتفض من الأعماق، أمعاؤه تنفض آخر بصقة فيها من الغثيان • جفونه ترتفع ، صداع يسيل من عينيه ، يريحه ، القىء يغمــر الأرض وطرف السرير بسائل أصفر ، رأسه يدور من جديد ، منذ هنيهة كان مسنودا ، زوجته قادمة من عند الدولاب بيدها فوطة ، تمسح وجهه بها ، تنزع عنه القميص ، والحذاء ، والبنطلون ، تمدده على السرير ، تغطيه ، تجلس على حرف السرير معطية ظهرها له ، جسدها يهتز فى نشيج مكتوم •

مد يده على ظهرها • قال بنبرة مرتعشة بأوتار يأس مرير :

— آسف •

— وعلام الأسف ؟ كنت مشفقة عليك !

— ربما سقطت من فمى بعض الألفاظ الجارحة •

تركته يعبث فى شعرها ..

ـــ أبدا .. لم يحدث منك شيء يجرحنى ! لكن ما حكاية الكمسارى معك ؟!

ـــ هل ظهر الكمسارى ؟!

ـــ نعم .. لم يكن فى فيك غيره !

ـــ تقيأته والحمد لله انه لم يتعفن بداخلى ، وان كان قد لوث المكان .

ـــ كل هذا من الزحام .

ربتت على ظهره ، لأول مرة يشعر بحنانها ، اعتدل جالسا ، قبلها فى جبينها ، قالت : « النوم أفضل ! » . عاد لينام ، رقة مفاجئة ! طراوة حنونة حلوة ! . رائحتها فى أنفه كأشهى ما تكون، الجوع يغريه ، ريقه ناشف كالعصا ، أمنيته جرعة ماء ، من هذه القلة لا من غيرها يشتهى الارتواء ، القلة بجانبه ، تتربع فى رشاقة على حافة المخدة ، ذهنه ما الذى حدث فيه ؟ لا أطراف للأشياء ، لا نهايات أيضا ! كل الخيوط متشابكة ، معقدة ، موئسة ، كل الطرق الى زوجته مغلقة طريق واحد كان يمكنه ارتياده اليها ، طريق يجب أن يغوص فيه الى أن يغيب تماما فى أحشائها ، لكنه ما زال هو الآخر مغلقا ، على حافته راية حمراء تنذر بالخطر ، كل المحاولات تبوء بالفشل ، والخيبة ، والهزيمة ، والحرج ، أى

الطرق يسلكها الى زوجته ؟ اذا كان الطريق الشرعى الوحيد الذى عليه ـــ أولا ـــ أن يفتحه اليها محفوف بالأشواك ويعجز عن الاقتراب منه ؟ •• أى السبل توصله الى الحياة ؟••

جدار داكن السواد شامخ العناد على مشارف البصر ، روحه تختنق ، لابد أن تفتح عينه ثقبا فى هذا الجدار . ولو فى حجم ثقب الابرة ، لعله يوسعه ، الانسان يهبط الى الدنيا من خلال ثقب صغير •• ثم يعود فيجدها فيه ، كان من الممكن أن يرى الدنيا من خلال زوجته كما كان يحلم لو أنه فتح فيها ثقبا معينا ، هى نفسها كان يمكن أن تكون ثقبا على الحياة ، عيناه تسقطان الى الأرض ، أرض السرير ملاءة كان يذكر أنها بيضاء من قبل ، كبخار يرتفع من كوب ساخن نهض بصره عن الملاءة ، شخص يتمدد فى مرآة التسريحة ، جسد ينطرح كلوح من الخشب لا تند عنه حركة ، مفرود الذراعين عن آخرهما ، ليس شخصا ولا جسدا هو بالتأكيد « خيال مآتة » هزته ريح عاصفة فألقته على ظهره ينظر للكون ببلاهة تجمدت عليها نظرته الحمقاء ، احدى يديه تتشبث بجلباب الزوجة ، قد لا يكون جلبابا ، قد تكون خرقته التى كانت ـــ قبل هبوب الرياح ـــ منطرحة على كتفيه ثم ألقت بها العاصفة الى بعيد لولا ن انشبكت هكذا ، يبدو أن العاصفة ما زالت تهب ، فها هو الجلباب يشاكس اليـــد ويتمرد عليها ،

اهتز خيال المآتة ، انشد الثوب وانفصل •• مضى يهفهف الى بعيد ••

طرق باب الشقة وهو فى حجرة المكتب فنادى :

ــ شوفى الباب يا ست •

لكن الطرق عاد يتكرر مرات طويلة ، اضطر الى القيام ليفتح الباب بنفسه • فى الطريق كانت زوجته قادمة من حجرة النوم فى تراخ • فتح الباب ، طفل صغير يسلمه خطابا •

ــ خطاب لك ويقول لك الحاج ، انه يكون شاكرا لو تفضلت بشرب القهوة فى الدكان •

ــ شكرا ، سأكون فى أثرك •

رمى الخطاب على المكتب ، دخلت زوجته وتناولته ، وجهها ينبسط وهى تفتحه بلهفة قائلة انه من خالها ، تذكر الآن أنه منذ أسبوع أرسل خطابا الى خالها الفلاح لكى يبعث لهما قليلا من الأرز من محصوله الخاص على أن يتحاسبا فيما بعد ، انقبض وجه زوجته رمت الخطاب وخرجت ، تناوله ، تجاوز كمية السلامات المعهودة التى تحتل نصفه تقريبا ، توقف عند الاعتذار، يقول خلالها انه سلم المحصول كله الى الجمعية وخرج مدينا لها بسبعة عشر قرشا وللمشرف الزراعى بذكر من الأوز لقاء خدماته ! ••

دخلت زوجته :

ـــ أرسل لك الحاج ثانية .

نهض ضائقا :

ـــ لماذا لا يدعنى فى حالى .

رمقته بشيء من الاستغراب :

ـــ ان كان لك حاجة عند الكلب قل له يا سيد !

عند الباب استدار اليها قائلا :

ـــ وان كان الكلب هو الذى له عندى ، ماذا أقول له ؟!

ضحكت بسخرية وقالت :

ـــ يا سيد .. أيضا !

ـــ شيء فظيع .

قالها وهو يفتح الباب ويخرج مشوش الذهن حائرا .

قال الحاج وهو يقدم له كوب شاى مثل الكستبان :

ـــ لنا عندك خدمة لكنها بسيطة !

تجرع رشفة الشاى المر :

ـــ تحت أمركم .

ـــ تبحث لنا عن حل بشأن هذا الولد المجاور لك !

ـــ فى ماذا ؟

ـــ نعتزم طرده من الشقة !

كاد يتقيأ الرشفة :

ـــ لماذا تطرده ؟!

ـــ ولماذا أبقيه ؟!

ـــ فى الأمر ظلم أنت تعرفه .

ـــ انه لا يدفع ايجارا كما تعلم .

ـــ لأنك لم تستدع اللجنة كما اتفقنا ، كما أن المياه لم تدخل البيت بعد !

ـــ أما توصيلة المياه فليس فى جيبى تكاليفها !

ـــ ولجنة التقدير ؟

ـــ لست أنوى طلبها !

ـــ القانون يرغمك .

ـــ لى مع القانون شأن آخر !!

نهض تحاشيا للاصطدام فى هذا الظرف غير المناسب :

ـــ ما المطلوب منى اذن ؟

ـــ اجلسى قليلا •

تمدد على دكة خشبية فى مدخل الدكان اكراما له ، أو كسبا لوده ، وضع الحاج تحته رزمة من الورق ، تكومت الزبائن على الجانبين ، ارتفع اللغط وزعيق الأطفال • الحاج كالمكوك يروح ويجىء ويصعد ويهبط ، المذيع فى الراديو يرسل ضحكة فى عدة شهقات متوالية • هذا صوت مطرب شهير يحكى للمذيع بعض « المواقف » التى تسببها له المعجبات ، صرخ الحاج بغيظ دفين :

ـــ اخرسوا يا سفلة •

وجذب ورقة مالية من يد صبى فكاد يمزقها ••

ـــ ألم أقل لكم من قبل قفوا محترمين ؟!

تحرج الصبى ، وعن كل صياح صمت الأولاد الصغار لكن المذيع لم يصمت بل ارتفع صوته واتضح أكثر :

ـــ ا •• ا •• ى •• ى •• أستاذ فلان •• بقى سؤال فى منتهى الخطورة !

ـــ تحت أمركم •

ـــ ا •• ا •• ترى •• ا •• ما السر •• ا •• فى .. ا ..

أن ٩٩٫٥٪ •• ا •• من المعجبات بحضرتك •• ا •• كلهن •• من البنات ؟! ••

ــ آ •• هيه •

ــ سؤال مهم •• أليس كذلك ؟!

ــ واللهى •• الحقيقة •• أقول •• يعنى •• لكن •• ربما •• لأنهن يمكثن فى البيــوت كثيرا •• و •• لديهن وقت الاستماع •• ها ها ها !

شخط الحاج فى صبى :

ــ تأدب يا ولد •

وصاحت صبية صغيرة :

ــ عندك لبان يا حاج ؟

ــ نعم عندى زفت !

ــ هات بقرش لبان الهوانم •

وقال الراديو ــ هكذا فجأة ــ فى سبهلله راقصة :

ــ خدنى لحنانك خدنى •• عن الوجود وابعدنى •• بعيد بعيد وحدينا •

وصاح أحد الزبائن :

ــ هات باكو فحم يا حاج •• وباكو معسل مزاج كامل •

فقال الراديو :

ـــ هات ايديك ترتاح للمستهم ايديه .

وقالت فتاة « عرباوية » رائعة الوجه :

ـــ عندك كحل اسود يا حاج ؟

ـــ أكثر مما فى عيونك ؟

هكذا غمزها من تحت الى تحت ، فتقصعت ورمقته بنظرة وسعت من رقعة الكحل فى عينيها . قال الحاج وهو يحملق فيها :

ـــ أين النقود ؟

فقالت من خلال ابتسامتها المزدهرة فى ضوء اللمبة النيون

ـــ على الحساب .

انبعج كرش الحاج الى الأمام ، بينما تراجع رأسه فى يأس :

ـــ طال الحساب فمتى تنهيه ؟

فقال الراديو : ـــ

ـــ وحدينا .. بعيد بعيد ..

وقالت الفتاة :

ـــ عن قريب باذن الله .

ابتسم الحاج وأزاح عمته الى الخلف قائلا فى هزة من رأسه:

ـــ وبعد يا أستاذ .. شف لنا حل فى هذا الولد .

وأضاف بعد برهة :

ـــ بكل صراحة . لقد عرض « فلان بك » فى هذه الشقة ضعف ما يدفعه هذا الولد ! على باب الدكان انفتح باب سيارة ذات حزام أصفر ثم انصفق فجأة ، الزبائن على الجانبين يهتزون فى وقفتهم ويلبسون أقنعة الوقار فى استقبال هذا القادم الجديد نحو الدكان فى موكب مهيب . ثم صاح الواقفون وعلى رأسهم الحـاج :

ـــ أهلا فلان بك .. تفضل .

ووسعوا له عديدا من الطرق ، تقدم محييا الموجودين مسلما على الحاج متجاهلا وجود «هو» عن عمد . لم يعزم عليه الحاج بالجلوس ربما لاحساسه بأن المكان غير مناسب وربما لرغبته فى ابقاء هذا المهرجان أمام دكانه . مال « فلان الفلانى » على أذن الحاج وهمس بشىء ابتهج له الحاج ، رفع وجهه وأخرج علبة سجائر مذهبة عزم بها على الواقفين فقبلوا العزومة كلهم حتى الصبيان .. ثم زفوه بالشكر والتحية الى باب العربة .

وسأل واحد منهم :

ـــ من هو ؟

فقال آخر :

ـــ يبدو أنه سمسار شقق •

فقال ثالث :

ـــ لا يا عبيط •• انه مخابرات !

وتوالت التوضيحات والتعليقات :

ـــ رئيس مجلس ادارة كبير •

ـــ مقاول أنفار •

ـــ كان فى الكويت !

ـــ تاجر خردة !

ـــ الناس تخاف منه ، تهابه ، لماذا ؟

ـــ لأنه مجهول الوظيفة •

وقال الحاج :

ـــ انه مدير كبير • وله سلطة عظمى •

فقالوا جميعا :

ـــ مدير ماذا ؟ ••

قال الحاج بزهو عظيم :

ـــ الهيئة العامة للشئون الخاصة !

قالوا جميعا فى نفس واحد :

ـــ آ •• ه ••

ثم تناثرت التعليقات كأنما سبق لهم اكتشافه من قبل :

ـــ ابن حلال !

ـــ متواضع !

ـــ خـــدوم •

فأضاف الحاج :

ـــ كان من الممكن أن يسكن فى أعظـــم حى •• مع ذلك جاورنا !!

قالوا جميعا :

ـــ صحيح •• لماذا ؟! ••

قال الحاج :

ـــ يقول انه يلتصق بالجماهير •• وبالشعب !

سحب « هو » « الجرنان » وراح يتسلى • الصفحة الأخيرة، صورة لواحد من كبار كتاب « الجرنان » يبتسم فى شقاوة تحت عنوان مقاله • حوادث الأسبوع : امرأة تقتل طفلها من أجـــل عشيقها •• امرأة تتستر على قتلة زوجها وتشارك فى التآمر على حياته •• عروس تختفى ليلة الدخلة مع شـــقيق عريســـها •• البوليس يضبط كمية هائلة من الحشيش والأفيون •• لفيف من

الطلبة الفاشلين يتزعمون عصابة لكسر الشقق •• عصابة أخرى لتزييف النقود والشهادات وجوازات السفر •• نصاب يتقمص شخصية صحفى كبير ويجمع نقودا طائلة من الأقاليم ••

ـــ عندك بلمونت يا حاج ؟

ـــ لأ • عندى وينجر •

ـــ •• ليلة مع السكارى فى معبد الحب وأغنية جـــديدة لشاعر التنهدات وحديث صريح مع راقصة صاعدة وصورة عارية لمطربة عائدة من رحلة فنية حافلة ••

ـــ عندك أرز يا حاج ؟

ـــ لأ •• ولا مكرونة •

••زوجة زعيم عالمى راحل تتزوج أحد زعماء المال وأصحاب الضياع الكبيرة •

ـــ عندك صبر يا حاج ؟

ـــ نفد الصبر يا ابنتى •• يجينا منه قريبا •

•• أنفاس العالم تتعلق بنتائج الانتخابات فى كبرى الدول••

ـــ كم ساعتك الآن يا حاج ؟

ـــ والساعة واقفة يا ولد •

••مجلس الأمن ينعقد مساء اليـــوم لمناقشة الاعتـــداءات الأخيرة ••

ـــ أقول يا أستاذ ..

ـــ نعم يا حاج .

ـــ هذا الولد لابد أن تساعدنا فى طرده !

.. مندوب الولايات المتحدة يفشل فى مهمته ، طرد العدو من أرض الوطن أمر مفروغ منه ولابد أن يتم بأى سلاح وبكل سلاح ..

ـــ لابد من طرده يا أستاذ .. فكر معنا !

ترك الجريدة ونظر الى الحاج بضيق شديد :

ـــ ماذا تريد منى بالضبط ؟

ـــ فكر معنا .. ساعدنا .

ـــ سامحك الله .

جلس الحاج على درج كازوزة .. ومال نحوه مسرا :

ـــ طبعا يهمك أن تدخل المياه .

ـــ طبعا . هذا شرط أساسى موجود فى العقد .

ـــ اذن فساعدنا على تنفيذه .

ـــ أنت ملزم بتنفيذه رغما عنك .

ـــ من الذى يلزمنى ؟!

ـــ العقد طبعا .

ـــ شف يا أستاذ ، الدنيا عمار لأن فيها أخذ ورد ، ومن أين يأتى هذا ؟ •• من عدم تنفيذ الاتفاقيات ! من عدم الالتزام بأى عقود ! ، الواقع يا أستاذ يفرض علينا حاجات لم تكن فى الحسبان عند تدوين العقود ! ، أنا لم أتعلم فى مدارس ، لكن السوق علمنى كثيرا من البلاوى • سنين قضيتها فى كامب الانجليز سائقا أتكلم وأرطن بكل لسان •• سنين أخرى سواحا أشيل على كتفى أحمالا من البضائع أجول بها بين الكفور والعزب ، ثم أختتم التجوال أخيرا فى هذا المخروب !!

ـــ شىء عجيب حقا •• أفهم من هذا ••

ـــ افهم ما أقوله لحضرتك ، وأفهم أيضا أنه ان كان ولابد من استدعاء اللجنة فباستطاعتى تنفيذ ذلك ، ولكن ثق أنهـا سترفع القيمة الى الضعف ، ما علينا ، يهمك طبعا أن نمهلك فى الدفع حتى تيسر أحوالك •• سليم ؟

ـــ سليم •

ـــ ويهمك طبعا أن تدخل المياه الى شقتك •• سليم ؟

ـــ سليم •

ـــ اذا فرض أننا حققنا هذا فى خلال أسبوع ••

ـــ المفروض أن ••

ـــ حلمك يا سيد •• فلان بك أخذ هذا على عاتقه • بشرط ••

ــ لاحظ أننى لن أقبل الاشتراك فى ..

ــ المسألة واضحة ، ليست جريمة ، الشقة يسكنها من يفهم قيمتها !

ــ تقصد من يدفع أكثر !

ــ طبعا .. هل أكذب ؟

ــ لن أشترك فى أى مؤامرة ! ، استودعك الله .

ــ يعنى لا تود التفاهم معنا ؟

ــ لا يمكننى ذلك أيضا ، سلام عليكم .

قفز عتبة الدكان متخطيا الشجرة الصغيرة ، أخذ طريقه الى البيت .

- ٣ -

استقبله التمورجى بابتسامة عريقة فى الليونة ، ثم دعاه الى التفضـــل بالجلوس ، جلس • أسرعت يد التمورجى الى دفتر التذاكر لتضع الكربون بينما يسأله عن اسمه بالكامل ، أخبره أنه يطلب الطبيب لزيارة خاصة وأنه ليس مريضا ، ثم ضحك من هذا الادعاء ! ، انكمشت الابتسامة على شفتى التمورجى وآبت الى شعور بالضيق أدى به الى اهمال هذا الزائر وقتا طويلا ، مل « هو » من تصفح المجلات القـــديمة الملقاة أمامه ، فقـــرر التضحية بآخر سيجارة معه ، ثم عزم بها على التمورجى ، نهض التمورجى احتراما لعود الكبريت المشتعل ، لم يشأ الجلوس ثانية ، انما دخل الى حجرة الطبيب ليبلغه خبر قدوم الزائر بالصيغة التى حددها له : « قل له فلان » ••

اهتز الباب الزجاجى رائحا غاديا بين الداخل والخارج • أشياء

كثيرة تهتز فى رأسه : زوجته ، فلان الفلانى ، الحاج • الملاية ، عسكرى المرور ، الكسارى ، بصق على الأرض فى قرف ، ثم أحس بالخجل فدارى البصقة بقدمه ، اهتز الباب ثانية ، لفظ التمورجى ، الذى قذفه بنظـرة استنكار قائلا له فى فتـور : « تفضل » ••

نفخ الطبيب دخان سيجارته وقال :

— استفحل الخطب والنتيجة سيئة !

— والحل ؟

— هناك بصيص من الضوء •

— أفى الامكان أن يتسع ؟

— أنت وحدك الذى يملك هذا !

— كيف ؟

— الهدوء والدفء والغذاء !

— اننى لم أبدأ العلاج بعد •

— أعرف !

— ومسألة الغذاء شائكة !

— واضح •

— ثم انى أكاد أحيا فى العراء •

ـــ مفهوم !

ـــ ماذا اذن ؟

ـــ افعل المستحيل لكى توفر المطلوب ، بشكل مؤقت على الأقـــل •

ـــ من أين يا طبيب ؟

ـــ أضاقت بك الدنيا الى هذا الحد ؟! ••

ـــ وضاقت بى العلة من فرط استعذابى لها ! •

ـــ المفروض أن تكون قادرا على مواجهتها •

ـــ ليس بيدى كما تعلم ! ••

ـــ لكنك شخص ذو حيثية •• على ما يبدو ! ••

ـــ أما الحقيقة فهى مرة كالصبر ! •

ـــ ليس أمر فى تقديرى من علتك •

ـــ قد تكون الحقيقة علتى •• علتى الكبرى !

ـــ اذا عريتها تطهرت منها •

ـــ مكمن العلة فى أن الجميع يعرفونها ، يعرفونها فقط ! •

ـــ غريب •• مع ذلك أراك تنوء بحملها وحدك ! •

ـــ منذ متى يحمل الناس شيئا من علل الآخرين ؟! •

ــــ حياتك لغز يحيرني ! •

ــــ ويحيرني أنا أيضا ! •

ــــ لو في يدي لأعطيتك ثمن العلاج •

ــــ ليس بثمن العلاج وحده تنحل مشكلتي !

ــــ •• ولا حتى بالعلاج نفسه ؟

ــــ ألم تفهم بعد علتي ؟!

ــــ أنت أدرى بها مني ، أما أنا فعلى هدى اشاراتك أقترح العـلاج •

ــــ سبق أن أشرت لك على كل أبعادها ! •

ــــ نعم وقد أفهمتك أنها أوسع من امكانياتي كطبيب ! •

ــــ يعني لا أمل البتة ؟!

ــــ ليس بامكاني تقرير ذلك •

دخل التمورجي ليستعجل الطبيب ، أشار له الطبيب بايماءة من رأسه :

ــــ لا بأس •• دعهم يدخلون ••

ثم عاد اليه مكملا :

ــــ •• مع ذلك يجب أن تسعى للقضاء عليها •

ـــ ثمن علتى فى ضمائر الآخرين !

ـــ لا تيأس من المحاولات .

ـــ ترى هل أوفق يوما ؟

ـــ قد تنجح فى التجميع وتقضى عليك العلة الأولى !! .

ـــ المهم أن تنجب زوجتى ! .

ـــ لو تخليت عنها ربما أنجبت !

ـــ أنا أريد ذريتها .

ـــ عدنا اذن لرأس المشكلة من جديد !! .

وأشعل سيجارة أخرى ، مع دخانها نفخ ضيقه الشـــديد من ثرثرة زائره العقيمة ، نعم أحس « هو » بأنه ثرثار ، وأن ثرثرته هى الأخرى عقيمة ! ..

دخل أول المرضى وجلس فى مواجهته . فلاح مصرى ممصوص ، وضع يديه على ركبتيه . أخذ يهرب من نظرات « هو » . على وجهه مسحة من الحرج ، يحاول أن يداريها ، قال للطبيب أنه مرتخى الأعصاب باستمرار ، وأنه ما كان ليفكر فى الحضور الى هذه العيادة لولا أن المسألة تعدت حدود «العصب» وباتت مسألة كرامة ، ابتسم له الطبيب وشجعه على المضى فى الحديث بايماءة من رأسه . أكمل الفلاح قائلا أنه تزوج من فتاة « متمدنة » فى الثامنة عشرة من عمرها اتضح له فيما بعد أنها كانت طامعـــة فى

خيراته ليس غير ، تتخايل على وجه الطبيب مناورة يستطيع «هو» وحده ـــ دون الفلاح ـــ أن يلمحها ••

قال الطبيب للفلاح بابتسامة مهذبة :

ـــ لابد أن لديك أموالا كثيرة •

ضحك الفلاح فى سذاجة وقال :

ـــ لدى ذراع عفية أحلب بها الكثير من ضرع الأرض ، مع ذلك فبطن زوجتى يضن بكل شىء ! •• ولا يعطينى شيئا ، أخشى ألا يكون فى عروقى غطاء أنا أيضا اذن لصارت المصيبة عظيمة •

طمأنه الطبيب بأنه لا يزال فى عز شبابه ، وأن المسألة ، بالتالى، فى غاية البساطة ولا تدعو للذعر مطلقا ، ثم أرسل الى « هو » نظرة استطاع هو أن يقرأ فيها : « أخشى أن تثبت حقيقة أن أثمان علل الآخرين فى ضمائر الآخرين ! » ، ونظر الفلاح اليه من تحت الى تحت ليتأكد ان كان لا يزال يرقبه أم لا ، وقال كأنه يوجه الحديث اليه وان كانت نظراته قد اتجهت للطبيب ، ان هذا « الموضوع » جديد عليه تماما • سأله الطبيب ان كان قد أنجب من زوجة سابقة أم لا ، تنفس الفلاح وانطلق زهوه المكبوت مجلجلا فى ضحكة مليئة بالسخرية والمرارة ظلت تنسحب ببطء مخلفة وراءها ذيلا طويلا من التنهيد الحار :

ـــ نعم يا سيدى أنجبت وليتنى ما فعلت !

ثم زايله الارتباك فوضع رجلا على رجل وتلمظ فى انفعال مكبوت ودس يده فى جيبه فأخرج علبته الصفيح وأخـذ يبرم سيجارة ، وأكمل ، بنبرة يرتعش فيها حزن حقيقى :

ـــ صرفت عليه الجلد والسقط ، كبر وأصبح له شأن كبير فى البلد . رحت أقابله فى مكتبه المكيف الهواء تصـدى لى الساعى ومنعنى أنا الأصل !

وجه الطبيب يغوص فى محاولة خسيسة للتهرب من تكملة هذه الحدوتة ، التى وصفتها ملامحه بأنها سمجة ، بعلمانية عصرية تخفى لهجة كهنوتية قديمة أكـد الطبيب للفـلاح أن القصـة فعلا فى غاية المرارة وأن لها دخلا كبيرا فى « المسألة » وأن المسألة تبعا لذلك تحتاج الى مجهود عبقرى فى علاجها ، فالعلة اذا كانت فى الجسد تهون ، أما اذا كانت فى النفس فذلك أمر صعب التمريض مع ذلك سوف ـــ باذن الله ـــ يعيد الماء الى مجراه ، استبشر الفلاح ، يبدو أنه يريد أن يؤكد الأمل بافشاء المزيد من الأسرار :

ـــ نسيت أن أقول لك ان الست التى معى الآن شقيقة السابقة ! قطقوطة حلوة أكثر من أختها لكن يا خسارتها شعنونة

متمردة تهوى الأغانى والمسلسلات وتموت فى الهذر والتهريج ..
أكلمها حرفا ترد على باللاوندى !

ينبثق على وجـه الطبيب استبشار من نوع خاص ، يغريه بالتنازل عن بعض الرتوش الشخصية فى اللوحة العامة ، يجعله يجعل البساط أحمديا بعض الشيء ، بقدر يمكنه ـ لاشك ـ من احكام السيطرة على هذا الزبون «اللقطة» ، فهو زبون لاشك سيدفع كل ما فى حوزته من نقود سائلة فى سـبيل أن يصارع الشعنونة ويباريها بفحولته ، مال نحو الفلاح بانحناءة مبتذلة واحترام بالغ الزيف لزج اللهجة :

ـ سيجارة حضرتك ، تفضل . شكرا .

ثم بحركة مسرحيـة لوى جـذعه بتشبب لا يناسب وقار الخمسين .. وترامى بعلبـة السجائر نحو « هو » .. الورد انجليزى يغدق على كائن ضعيف ..

ـ شكرا .. لا أدخن .

قالها « هو » ونحى يد الطبيب بحركة ، لا يدرى لماذا جعلها ميكانيكية مثلما جاءت بها ، أشعل الفلاح سيجارته ورمى «هو» بنظرة حاقدة .. استدار ليجلس .. بصق فى اتجاهه بقايا الدخان بدأ يدون فى الروشتة : أصنافا من حبوب لا حصر لعـددها ، حقن ذات أسماء خيالية معقدة ، أسماء أخـرى كثيرة لم يفهمها

الفلاح وهو يستمع اليها . الشرح يطول ويتفرع التوضيح،ينوه الذهن ولا يهدأ لهاثه الا عند محطات خاطفة تقضيها يد الطبيب فى تدوين صنف جديد ، الفلاح فاغر الفم مذهول وطفل أبله يشاهد أباه اذ يعقد له قرانه ، سعادة يشوبها كثير من التوجس وقليل من لذة الخوف من الوفاء بهذه المسئولية الجسيمة التى بدأت تتضخم الآن شيئا فشيئا الى ان تعدت حدود قدراته المادية والمعنوية بل وقدرته على التفكير أيضا ، الطبيب يوقع الروشتة فى سرعة رشيقة ثم يطويها ويقدمها للفلاح ، ارتعش الفلاح ومن فرط الخجل والوهن تضاعف عمره فى لحظات ، أخرج محفظته وسحب كل ما فيها من أوراق مالية تختبىء فى الأركان وبين طيات أوراق أذابها البلى وان كانت فى مجموعها تشكل وثيقة عمره الراهن ، يد الطبيب تنقر بمؤخرة القلم على حافة الطفاية بايقاع عصبى سريع متوتر ، بينما يحتجب وجهه خلف الجرنان ، الفلاح يواصل البحث باصرار عنيد ومثير ، ايقاع القلم يزداد توترا ، صفحة الجرنان تتقارب وتتباعد. وتتخذ زوايا متعددة ، ذراع الفلاح يزحف ، مرتعشا نحو هامة الطبيب حاملا كل ما فى حوزته ، انزاحت صفحة الجرنان كأنها قد أفاضت بكل ما لديها ، وجه الطبيب يتقلص فجأة وينقبض ، ينظر الى كل ما فى هذه الكفه باشمئناط. وترفع بلغ حد التقزز ، بهدوء ثائر أزاح الطبيب كف الفلاح بحمولتها المتواضعة من البرايز والشلنات والقروش ، ثم

نصحه أن يذهب بها الى العطار ، باليد الأخرى سيحب الروشتة من يد الفلاح ومزقها الى نتف صغيرة ، رمى بها فى سلة المهملات .

فى عز الليل تقلب « هو » على جنبه فلم يجد زوجته بجانبه! ، ارتعد السرير تحت انتفاضته ، لعنه فى سره ، صوت زوجته يكح فى نهاية الصالة ، « استبوخ » نفسه ، عاد للتمدد من جديد ، ليس من عادته أن ينام قبل حلول الفجر بأى حال ، حتى ولو قضى الليل ـ وهذا ما يحدث دائما ـ محملقا فى اللاشىء ، لا يذكر متى بدأ يشك فى سلوك زوجته . ذات ليلة طلبها للنوم فلم تأت، تلكأت وشغلت نفسها بأشياء تافهة جدا ، أثارت حنقه ، هبطت بانفعال الرغبة فى أعماقه ، أودت بحماسه .. حماس كان مفاجئا ، لكنه استشعر حلاوته ، شم فيه رائحة الأمل ، على غير العادة عادت زوجته بعد ساعات ، ارتمت بجواره فاقدة الحركة ، قبلها بلحظات تمنى أن يبلغه صوت موسيقى المياه ، أو زحف الليفة على جسدها ، أو زلاقة رغاوى الصابون ، يذكر أنه ليلتها كان مثله هذه الليلة : تستبد به رغبة جنونية فى تدمير كل شىء ، هى لم تعطه الفرصة ، انما أعطته ظهرها فقط ، دقات قلبه هى الصوت الوحيد الحى فى ليل المأساة .. كيف لم تسمعها زوجته ؟! ..

لماذا يحس الآن بالندم ؟ . ألأنه أهان نفسه بنفسه ؟ ، لماذا أقدم على تلك الحماقة الصبيانية فى تلك الليلة ؟ كان المفروض أن

يظل على موقفه الثابت منها ، موقف المدعو دائما ، المتقمص — بغير قدرة على التمثيل والحق يقال — حالة الرافض غير المتكالب. لا ينكر أن هذا الموقف كثيرا ما بدا له ساذجا فى بعض الليالى ، لكنه كثيرا ما أراحه من عذابات طويلة ! بل كثيرا ما كان يعطيهما نتيجة باهرة للحظات خاطفة ، نعم لحظات ، لكنها كانت تشد خيط الأمل من جديد ، فينتصب عامود من النور فى الأفق البعيد ، وهو يغمض عينيه ويلهث لكى لا يستبعد المسافة ، آه من قلة صبره ، دائما يستبعد المسافة ، كل المسافات أصبح يستبعدها ، يظل يعلو ويعلو ، وبمجرد الاحساس ببعد المسافة يهبط على الفور ، لماذا يهبط ؟ أيكون اليأس ؟ أم الملل ؟ أم ذروة اللهاث تفريغ للحيوية قبل بلوغ الغاية ؟ أم يكون الداء فى شدة اللهفة والاندفاع معها كالشهاب ؟ أم سيطرة الغباء على شقاوة زوجته ؟ ، كم أطلت عيون الرغبة تبرق فى حلكة الليالى ، كم ، من أجلها ، انتصب عامود النور فى الأفق البعيد . كم استسلم العناد الحلو فى نهاية الشوط وانتظر النتيجة المرجوة ! .. كل الفروع الخضراء والأعواد المورقة تكف عن التمايل اثر انتهاء الريح من عواصفها المنعشة رغم برودة الليل الشتائى .. تتفتح فى صفحة الأرض كل العيون ، تشخص ظمآنة الى سيول المطر ، كم تمخض اللهاث عن طلب الحلال .. البطة ترتعد ، فتبعثر فى الهواء ذرات انتفاضتها الأخيرة ، ويلوك النسيم ذيل تنهداتها .. أمه تصيح طالبة منه أن يسن السكين قبل أن تفطس البطة .. دائما كان يخشى الذبح

منول حياته .. دائما كان يتطوع أول قادم من داخل الحارة أو خارجها ، وبشهامة عقائدية متوارثة ينقذ البطة ، يتشهد ويبسمل ، ويزفر تعويذة المصير على عنقها .. مهما يكن من أمر فدائما كان هناك سلاح مسنون .. وكان لابد أن يسيل دم .. سيل الدم هو الدليل الوحيد على أن البطة لم تفطس بالفعل .. الراية الحمراء لا تزال ترفرف على مدخل الطريق الى زوجته .. رقعة قماش بيضاء معطرة فرشت فى أول لقاء فى أول شوط لتجفف عرق الانتصار ذى اللون الوردى ، ثم رفعت وطواها اليأس فى الدولاب مع أضرابها من الذكريات المحنطة .. صورة الزفاف عصفت بها ريح قلبتها على وجهها فلم يفكر أحد فى تعديل وضعها .. رقعة القماش لا تزال بيضاء ناصعة .. صورة الزفاف لوثها الغبار ! ..

.. لماذا أهان نفسه فى تلك الليلة القريبة ؟ ، لماذا أصبحت هى تهرب من محاولاته رغم اشعاع الأمل فى أطرافه ؟ ، لماذا أصبحت تكف عن الانتفاض فى ملاقاته ؟ أتكون قد فطست من زمان وانتهى الأمر ؟ ، شيء غريب حقا .. لماذا تتسلل ضحكة القمر الساخرة خلال شباكه الشرقى ليلا فى حين يختفى عنه وجه الشمس فى عز النهار ؟! ، طلوع القمر وان كان اشراق الا أنه دليل قاطع على وجود الليل ، أما غياب الشمس عن كبد النهار فماذا يكون ؟! .

أخيرا ها هى ذى تعود من الصالة ، ماذا كانت تفعل بها كل هذه المدة ؟ بل وكل الليالى القريبة الماضية ؟ ، يلذ لها البقاء بعيدا عن حجرة النوم طالما هو صاح ! لو كان ما يزال فى قريته لتصور أنها رافقت جنيا من أولاد تحت الأرض وأنها تتسلل كل ليلة لتنام فى حضنه ، بحيث يكون شبحها ظاهرا أما هى نفسهافيكون جسد الجنى العاشق قد هبط بجسدها الى جوف الأرض ، ها هى ذي تتجول فى الحجرة بلا سبب واضح ، وتجسد شبحها فى عين القمر على زجاج الشباك الشرقى ، يريد أن يسـألها . لكنها تناولت شيئا ما من الحجرة وخرجت ثانية . عجائب ، ماذا لو نهض ومشى خلفها متسللا ؟ فكرة صـبيانية لا داعى لارتكابها مطلقا ، لا داعى كذلك لاشعارها بالشك فى تصرفاتها والا أصبح سلوكا شرعيا تنتبه اليه فتمارسه عن عمد ..

عادت الى الحجرة ، ليس على أطراف أصابعها هذه المرة ، انما آثرت أن تبعثر صوت قدومها ولا تأبه بعصلجـة الأكرة ولا باندفاع الباب ليصفع التسريحة ولا بشبشبها الزحاف الذى راح يجرجر على الأرض ويطرقع فوق البلاط . جميل . هنا مبرر كاف جدا لأن يقوم ويرفع صوته ويحتج بكافة الأساليب التى ترضيه . يجب أن يعلن تذمره .

اقتربت هى من الكومدينو .. فلينهض جالسا أولا ثم يشعل سيجارة بغيظ ، فتحت الكومدينو ، تزحزحه هكذا على السرير

لا يكفى ، يجب أن يهب جالسا ، جسدها ينتصب فى مواجهته ، فى خياشيمه رائحة شهية جدا ، قدمه يبحث عن الخف تحت السرير ، خصلة من شعرها تسقط بين شفتيه ، المسافة بينه وبين الباب طويلة ، طويلة جدا ، الخف أيضا غير موجود تحت السرير ، اختفى من الحجرة . هو ما زال نائما ، هكذا يجب أن يكون ، هى « تعكرش » فى درج الكومدينو باهتمام مفجع .. ما أحلى تمثيل دور النائم فى هذه اللحظة ، جسدها يشطره الى نصفين طوليين ابتداء من الوجه حتى الساقين ، يحتجز نصفا فى الركن بين السرير والكومدينو ويطلق الآخر فى الخلاء ، يا حفيظ ، جذعها ملفوف ممتلىء ، يهبط فى انسياب رائع متدحرجا من فوق عجيزتها ، منحدرا الى الساقين المبرومتين ، المستقيمتين فى عدالة الهية جبارة ، رأسه وجد له مكانا عند التقاء الجذع بشاطىء الانحدار ، ما ألذ الاستغراق فى هذا الدفء ، هذه الملعونة فى خياشيمه ، فى صدره ، فى كل كيانه ، ها هى ذى تنتفض فى كل عروقه ، كل ذرة فى جسدها تثبت له أنها موجودة فيه ، فكيف لا يكون موجودا فيها ؟! .. كيف تتباعد المسافة بينه وبينها ؟! ..

انحنى جذعها الى الأمام أكثر لتتمكن من فتح خزانة الكومدينو ، انزلق رأسه قليلا ، يود لو طال انحناؤها هكذا ، « عكرشة » أخرى فى الخزانة ؟ عم تبحث بحق الشياطين ؟ لابد أن شيئا هاما بل وخطيرا ضاع منها ، والا ما استبسلت فى البحث

عنه هكذا : دعها تبحث ، فلعلك بالصمت تكشف نتيجة الأمر وان طال البحث ، لماذا تتباعد المسافة بينه وبينها يوما بعد يوم ؟ ألأنه لم يعطها شيئا معينا كانت فى أمس الحاجة اليه ؟ ، لا يذكر أنه اشتهى هذا الجسد الا وهو بعيد ، الا وبينهما مسافة ! ، لكنه حينما يزداد قربا منه يفقد شهيته نحـــوه تماما ، أحيانا كانت تتمدد على الفراش معرضة نفسها بشكل مبتذل يثير تقززه ، فكان جسدها يبدو كوجبة دسمة بالفعل قدمها مضيف عديم الذوق والاحساس والأدب مصحوبة بالمن وبذىء الألفاظ .. هكذا أصبح يشتهى هذا الجسد وهو بعيد عنه ويعافه بكبرياء اذا ما التصق به ، لابد أنها هى الأخرى لا تشتهيه ، نعم لابد ، والا كان لعلاقته بها شأن آخر ، فلو أنها اشتهته بصدق للحظة واحدة لا نتقل ذلك الى أعماقه على الفور ، لأصبح شـــيئا ملموسا يستطيع أن يضـــع يده عليه بل أكثـــر من ذلك يكون له لمـــدى اللحظة على الأقـــل ، اشتهاؤها له شىء يضـــاف الى نفسه للحظة معينة فيعطى أبهر نتيجة يتمناها كلاهما ، هو رجل كامل الرجولة وهى أنثى طافحة الأنوثة ، الى جانب ثقافته يعرف أنه يتمتع بفحولة فى قدرات أخرى فى كثير من النواحى ، غير أنها ـــ كفحولته الجنسية ـــ مكبوتة ، ولعلها اختنقت من طول ما عجزت عن التوافق مع مناخ مناسب ، أما هى فجســد فى منتهى الثراء والنضج ، لكنها خربة المخ باردة الاحســـاس

ساذجة الفكر بلهاء .. كانت تبحث فى شخصه عن عالم لم تجده، عن «أشياء» تحتاجها ويعترف أنه عجز عن تحقيقها لها : لا مفر من التسليم بأن الجرح معبأ بالصديد يا صغيرتى ، لا مفر من التسليم بالحقيقة : كلانا لا يحتاج للآخر ، كلانا فاقد ـــ ربما ليس غير ، وبالتحديد ـــ كل ما يبحث عنه الآخر .. فكيف تستقيم بنا الحيـــاة يا عزيزتى بل كيف سارت بنـــا طوال المدة الماضية ؟! ان استمرارها على هذا النحو أعقد من المســتحيل وأكبر من المعجزة ..

انتهت هى من فحص الخزانة ، لم يعثر بعد على السبب الحقيقى الذى يباعد بينه وبينها ..

انسحب جسدها فى رفق من تحت رأسه ومضى . انعكس ظلها فى عين القمر على زجاج الشباك الشرقى . جلست على الكرسى المواجه له وللقمر .أحكمت اغلاق الروب حول جسدها بل وعقدت حزامه أيضا .. كذلك عقدت ذراعيها على صدرها . بقى هو فى جلسته . ذهنه يتطلع فى ثنايا الحجرة باحثا عن شىء غامض .. أغلب الظن أنه يبحث عن نفسه ..

.. فى ليلة الدخلة جلست هى نفس هذه الجلسة على نفس هذا الكرسى ، من نفس جلسته هذه على حافة السرير تطلع اليها ، على وجهها تكشيرة أبعدته عن الاقتراب منها ، لم يكن بعـــد قد درس شخصيتها على حقيقتها ، كان خارجا لتوه من

المعتقل الذى قضى فيه نصف عمره بتهم مختلفة وقد فوجىء بها عروسة وقال الأهل انها عروسك فلا تضيعها ، وبينما يخلع ملابسه كانت هى تحكم لف جسدها .. عليه اذن أن يستدرجها باللين و « بصنعة لطافة » ؟ .. لكن غما ثقيلا يجثم على صدره .. ليس مهيأ للدخول فى أى محاورة من أى نوع .. هو الليلة عريس أى نعم ، لكن هكذا بحكم الواقع ليس الا ، وبحكم انتقالها هى من بيتهم الى هنا ، وليس ثمة سبب آخر يقنعه أنه عريس بالفعل . لم يكن عائدا الى عش الزوجية السعيد ، انما من حلبة صراع مرير ورخيص تبددت فيه كل طاقاته ومعنوياته .. فمنذ أن سافر لاحضارها الى أن عاد بها وقعت أحداث مهولة ، أين منها تلك التى تقع عند تغيير النظم والحكومات ؟ .. جاء المأذون وراح عديدا من المرات .. وانفردت ورقة الطلاق وانطوت فى حقيبته أكثر من عدد السجائر التى دخنها ليلتها .. ليلتها أيضا تلقى قوائم من الاتهامات ناءت طاقته بمهمة الدفاع عن نفسه ازاءها .. التفت حول عنقه نصائح العائلة وصفعته الآراء المختلفة ، تطالبه بكثير من الضمانات ، فيضمن ، وتحتاج ضماناته الى من يضمنها ، والشك فى كل الضمانات يفسد نهايات الجلسات المتواليات ، بطواقيها وعممها وطرابيشها ورءوسها العارية والملثمة فى شيشان سوداء والمتعصبة بمناديل بأوية ، وتستحيل كل الجلسات الى ضرب من الوهم لا حد لهمجيته ..

وهو وسط الجميع حائر غريب وان كان فى قريته •• حينما أغلق البـــاب عليه هو وهى كان لا يصلح لشىء تقريبـا •• الواقع أن جلوسها بعيدا هكذا زاد من حيرته •• أهكذا! من أول وهلة يحتفظ القدر بمسافة بينه وبينها ؟! ••

ــ لماذا تجلسين بعيدا هكذا •• أتخاصمينني ؟

نظرت اليه باشمئناط وبلاهة ريفية ، ثم مصمصت بشفتيها ، ضحك هو ، وقام ذاهبا اليها مرددا

ــ أتخاصمينني حقا ؟

وضع يده على كتفها ، نكست رأسها الى الأرض ولم تقل شيئا ، مال برأسه نحو عنقها ببطء ضاغطا بيده على كتفيها فى مداعبة :

أيبدأ الخصام بيننا من أول ليلة ؟!

قرب رأسه من عنقها أكثر ، انتفضت واقفة ، كحيوان برى غير أليف • نفضت يده عن كتفها بغلظة :

ــ دعنى •• أتظننى منهن !؟

ومضت بعيدا ، جلست على حافة الكومدينو ، قال لا بأس، إن اقترابها من السرير هكذا بشرى خير يجب استغلالها بحنكة ، ذهب اليها مبتسما متلمسا سعة الصدر محاولا نسيان تصرفاتها :

ــ هيا أحضرى لنا العشاء •• ألست جائعة ؟!

وكانت أمها قد آثرت ، تمشيا مع تقاليد قريتهم ، أن تضع « برام الاتفاق » تحت السرير لكى يفرطه العروسان فيما بينهما ليأتيا على مادفن فيه ، أعد « ترابيزة » صغيرة من الجريد وكرسيين ، جلس على أحدهما وأشار لها أن تجلس على الثانى :

— هيا .. دعينا نتعشى .

مالت وسحبت الصينية من تحت السرير ، ووضعتها على الترابيزة ، ثم رجعت الى مكانها ، شيعها بخيبة أمل مريرة وحقد بشع ، بذل مجهودا عظيما حتى تمكن من القيام والذهاب اليها محاذرا عدم الالتصاق بها :

— مالك ، أهذه دخله ؟ . دعينا نتعش ثم نتفاهم .

بلا أدنى اهتمام ، وبأطراف أصابعها ، دارت بذراع الملعقة حول دائرة الأرز ففصلتها عن جسم البرام ثم قلبته على وجهه وهزته فلم يهبط كما كان مرجوا : قرصا مكتملا أحمر القاع ، بل سقط جزء من قلبه وتناثر كيفما اتفق ، الملفت لنظرة أن ثمة دخان شهى لم يتصاعد من جوف الأرز المعمر ، فلا بد أنه كان باردا جدا ، أو لا بد أنه برد فى يدها ، وضعته وعادت الى وقفتها السابقة ..

— ما هذا الدلع ؟

— ....

— ألن تأكلى ؟

— نفسى مصدودة !

— آكل وحدى اذن ؟

— كما تهوى !

أزاح الترابيزة ونهض يكافح رغبة من الصراخ بشدة ويؤجل التفكير فى هموم كثيرة حطت عليه .

— طيب . ألن تخلعى هدومك لننام ؟

— لا شأن لك بى !

— يعنى لن تنامى اذن ؟

— لا شأن لك بى !

— أما أنا فمتعب جدا وسأنام .

مصمصت بشفتيها ، ولوت بوزها ! ، ارتمى هو على السرير .. وتمنى لو يغوص فى الأرض ..

.. ارتمى على السرير ، ذهنه يغوص فى تيه معتم ، ليلتها نام وتركها جالسة فى هـذا المكان عينه ، الليلة لن يتركها ، هـذا ما لا يجب أن يكون مطلقا ، أسرار كثيرة يود لو يفك سحرها ..

— جاءتنى الليلة فكرة ..

— هه !

ـ أقول جاءتنى الليلة فكرة جديدة بخصوص السفر •

ـ سفر ؟

ـ نعم •• أنسيت ؟!

ـ نسيت ماذا ؟ •• سفر من ؟!

ـ ألم نتفق بأننى سأسافر ؟

ـ الى أين تسافر ؟

ـ الى أى مكان • الباب مفتوح كما تعلمين •

ـ سافر

قالتها ببساطة شديدة كأن لا صلة بينه وبينها ! •

ـ نعم سأسافر ، فقط أقول جاءتني فكرة !

ـ وما شأنى أنا ؟!

لابد أن يهيل التراب على هذه القطعة من الحجر ••

ـ اسمعى يا •• أنت •• حياتنا معا أمر لا يحتمل !

ـ ألم تكن تعرف بعد ؟!

ـ أكنت تعرفين اذن ؟

لا ترد ، الجدران تهتز ، تهدر تحت عجلات القطار ، قطار الذخيرة المتجه الى أحشاء الجبل ، قطار مزعج ومفاجىء دائما ، عهود ومواثيق قطعها هو على نفسه من أجلها • أوراق وقع عليها

بشهامة لاثبات حسن النية ، تقديرات جزافية بالغ فيها حرصا على كيان المظهر العام ، قائمة العفش بمئات تبعد عن حقيقة العفش نفسه بعددها من الأميال .. هكذا رغبت حماته فى أن تتباهى بها أمام الجميع ! مؤخر الصداق ثروة لو وقعت فى يده لبنا بها عشرات الشقق . الانفصـــال عنها أمر فى غاية الصعوبة . بالرحيل قد يستطيع الخلاص ، كيف الرحيل وهى معلقة فى عنقه ؟ من غير الممكن أن تتم خطوة واحدة فى رحيله قبل الخلاص منها .

انغـلق باب الشـقة بصـفاقة متعمدة . انفتحت عينـه و « بربشت » فى الظلام برهة ثم أثقلها حمل من الأرق ناءت به واسترخت . ستار ثقيل من السواد والصمت يفصله عن الدنيا ، عن كل شىء . توقف القطار ، ركبه ، القطار يجوب الحقول والسهول يرجه من الأعماق يلقى فى قلبه الفزع . لا أحد ممن فيه يعرفه رغم أنهم من بلده ، كلهم كانوا على علاقة به قبل هذا اليوم .. ما بالهم لا يريدون التعرف عليـه ؟ ، بصره يصطدم بأبصارهم جميعا .. لا يبدو على أحد أنه يعرفه .. على العكس هم يمرون عليه بنظرات خاطفة ساخرة تتجاهل وجوده عن عمد .. هل يصرخ فيهم أم يعرفهم بنفسه من جديد ؟ هل يبصق فى وجوههم أم يبتسم لهم ؟ ، ها هم ينكمشون على بعضهم فى مجموعات تتصاعد منها الضحكات الموتورة ؟ أغلب ظنه أنهم يجامل بعضهم بعضا بالنكت القديمة .. ربما يكون هو الجديد

فى النكتة ؟ ، منذ تزوج تحول الى مضحكة فى البلد وبات يحس باحتقار الجميع له ، هبط كبرياؤه وفقدت شخصيته وقارها فى أنظارهم ! : يا أيها البلد العقيم كم أكرهك ! •• أيها الرجال الفارغون كم تقدمون الى الوجود ذرية مشـوهة الخلقة منحطة الأخلاق لا تجيد سوى التدبير وحياكة المؤامرات واسـتغلال الحيوات الخاصة فى هدم صروح المنطق والحق ! •• أيهـا المتسكعون فى حوارى قريتى والمتسللون الى مضاطبها بحثا عن خبر تحولونه الى اشاعة جديدة تتسكعون بها فى القعدات وعلى حسـها تخطفون لكم بضعة أنفاس من « الجوزة » •• لماذا تتركون الخواجا « جلانتي أبناء عم وشركاهم » يستولى على أرضكم ثم لا تفعلون شيئا سوى التنكيت على لغته والسخرية من مشيته ؟ •• أيها القطار غص فى أحشاء هذه القرية ودمرها تدميرا واجعل منها مقبرة للمرفهين فيها ، فهم سبب ما فيها من بلاء ومبعث هذه البلادة فى هـذه النفوس الضعيفة الغلبانة ، يقولون ان مقابر قريتى عالية هكذا لأنها كانت فى الأصل مرفهة فأغرقها الطوفان فانهدمت ونبتت حولها الأجساد والمخلوقات من جديد ، يقول آخرون ان الذى هدمها مدافع الفرنسيين فى احدى المواقع البرية داخل القرى ، وتقول جدتى ان الذى هدمها فرعنة الفرعون حينما لم يجد من يصده ، وكثيرا ما تنسى هذا القول فتقول انها مقبرة المسيخ الدجال هيأتها له السماء لتقوده الخطايا

اليها بعد أن ينتهي من رحلة المسخ والدجل •• فيا أيتها الطبيعة عجلي بالبت في هذه القضية المعقدة •• احكمي فيها وخلصينا ••

••• شوارع قريته تضيق • متى نزل من القطار لا يدري ؟ منذ متى وهو هنا لا يدري أيضا ! • أين ذهبت ملابسه ؟ غير معقول أن يكون قد حضر الى قريته هكذا ، يجر خلفه أسما لا بالية ، يتسربل بخرق مرقعة يمشى حافى القدمين يغوص فى وحل الطريق • الأرض مغطاة بطبقة مرتفعة من الطين • لا ، هذا ليس طينا ، أف ، انه ، انه •• شيء غريب •• أتكون البلد قد نزحت مراحيضها ومراحيض كل جوامعها فى لحظة واحدة ؟ ، هل كل ما كان فى جوفها يمكن أن يغطي أرضها هكذا ؟ لماذا لا يرفع قدمه ؟ نعم هكذا •• يلقى بثقله على الساق الأخرى ليتمكن من شد ساقه •• أف •• ساقه الأخرى تنغرز ، صوتها يخوض فى أذنيه •• رائحة كريهة تغزو أنفه وجوفه •• لا بد من الخلاص ! •• يستند باحدى ذراعيه على الأرض ليتمكن من رفع ساقيه •• يده تغوص حتى كتفه •• فليستند باليد الأخرى •• أف •• الأخرى تغوص بدورها •• أنفه يكاد ينغرز فى هذا الزفت • يبكى •• صوته يرتفع بالصراخ •• الكلمات تخرج من فمه ولا يعرف لها معنى •• الناس تتجمع على ضفتى الطريق فوق المصاطب • ينظرون اليه بلا مبالاة • يضحكون •• يشيرون اليه ويضحكون ! ، يتمايلون فى وقفتهم من فرط الاستمتاع ! ،

انه يختنق ، يموت •• يا سفلة ، يا أو غاد ، يا أكثر قذارة ونتانة من هذا الزفت الذى تلطخون به طرقكم ودوربكم ، ان هذا هو جوفكم الحقير ، هو الحقيقى فيكم ، وانكم لأجدر بهـا منى •• خذوا •• خذوا •• جعلتمونى أغوص فيها يا كلاب ؟••

اذن فخذوا بعضا منها على وجوهكم ، قبضات الزفت تتناثر من يديه فى سباق مجنون ، الوجوه تتلطخ ، قطع الطوب والدبش ترف عليه وتحاصره من كل ناحية ، تكاد روحه تصعد مع شهقاته رياح تعصف به ، الأرض نفسها تهتز ، هل يقع بركان ؟ جدار يميل نحوه •• كيف يجرى بعيدا عنه ؟! آ •• ه •• ألا ينقذنى أحد ••آه •• آ •• ه •• آ •••

فتح عينيه بصعوبة « ضرفة » الشباك فوق رأسه ، سائل لزج مثل الدم يغمر أنفه ويدخل فمه ، الجدران لا تزال تهتز ، ضجيج القطار يرج الأفق فى صراع رهيب مع العواصف ••

•• أين زوجته ؟ •• أين زر النور ؟ • ها هو ذا ، من هذا النائم فوق الأرض ؟ ، انها هى •• زوجته !! ، زغدها فى جنبها برفق :

ـــ قومى الى السرير •

ترك الحجرة• أغلق البـــاب خلفـــه ، حجرة المكتب خانقة ، رأسه محطم بلا شك، الدم يسيل فوق ملابسه ، يجب أن يغتسل،

المطبخ تفوح منه رائحة الرطوبة ، الزير بلا غطاء ، يده بالكوز تغوص فى قاع سرمدى أجوف ، فراغ ، ليس فى الزير ماء ، ألم تأت الملاية اليوم يا .. صوته ينحبس فى حلقة ، فى صدره غصة، يده تقذف الكوز فى الأرض ، أفزعه صوت ارتطامه بها ، يمكن أن يجفف نفسه بالفوطة لماذا دخل حجرة المكتب ؟ هل الفوطة هنا ؟ هل ينهض لاحضارها من حجرة النوم ؟ ، لا يقوى على النهوض ، من أماكن مجهولة فى رأسه يسيل الدم ، يسيل ، يسيل ، يسيل ..

.. يريد أن ينام ، يخشى أن ينام ، فى الطريق حلم يفزعه : زوجته سوف تأخذ السرير مع العفش حينما ينفصـــلان : اننا منفصلان بالفعل من زمان .. ليس فى الزير ماء .. الدم .. الدم ، جسده يرتعد ، يرتعد ، رأسه يدور ، يدور ، يدور . الأرض تعلو ، وتهبط ، تتهاوى ، تنحدر ، كل شىء عليها سينقلب، سيقع ، الكرسى واقع تقريبا ، لا شىء يسند شيئا ، يا .. يا .. يا أى أحد فى الوجود .. تعال اسندنى ، المكتب يهرب من يديه وسط الدوامة ، الأرض أيضا تنسحب من بين قدميه ، سيموت حالا ، آه ، ها هو الموت ، أيها الموت عجل وانتهى .. انتهى .. انتهى .. انتهى .. ا .. ا .. ا ..

- ٤ -

المرضة تتبختر فى صالة العنبر ، أقبل صوتها من عند الشباك الأخير ، أنبأه بأنه بإذن الله سوف يخرج غدا ، الواضح له أنها لا تزف اليه نبأ الخروج بقدر ما تنبهه الى هذا الموقف الحرج ، معها حق ، لا بد من حسمه الآن ، وانه لفى حيرة : هل سيخرج من المستشفى بملابســه التى جاء بها والتى أحالها الدم الى مستطيلات ناشفة كالعصا ؟! ..

اقتربت الممرضــة منه ، نظرت اليه كأنها تبلغه الخبر من جديد ، جريح على السرير المجاور له يتأوه من أعماقه بشدة ، مريض فى منتصف الحجرة يعلن تذمره بهذه التأوهات التى لن تنتهى ولن تعطيه فرصة النوم المريح ، لكنه ختم شتائمه بأن تأوه هو الآخر ، وتأفف ـــ سألته الممرضة وهى تحاذيه : هل أنت متزوج ؟! نباح الألم يشتد فى رأسه . الممرضة تمسك يده اليسرى ،

لعلها تقيس نبض الحرارة فيه ، أصابعها تحرك دبلة الزواج فى أصبعه ، تتنهد ، تمرر يدها على وجهه ، تتحسس جبهته ، رموشه تنفصل عن بعضها : المرضة أمامه تبكى • بكى ، لا يدرى لم •• ؟

•• زوجته لم تجىء لزيارته • لماذا ؟ • تقول الممرضة ان عربة الاسعاف أحضرته الى هذا المكان بلا رفيق ، يهمه طبعا أن يعرف من الذى أبلغ الاسعاف • تليفون الحاج بلا شك هو الذى تكلم ، لكن بصوت من يا ترى ؟ •• هذا ما يجب أن يعرفه • لكن كيف ؟ ••

ـــ من فضلك يا سيدتى • هل أطمع فى معونتك ؟

ـــ بكل سرور •

ـــ اطلبى الحاج فى هذا الرقم •• لكى يبلغ زوجتى نبأ خروجى •

ـــ أتطلب شيئا آخر ؟

ـــ ليس أكثر من ملابس للخروج •• تحضرها زوجتى •• أو تبعثها ان أرادت • أومأت برأسها موافقة ، استدارت وانصرفت ، هل تراها ستفعل ؟ ••

•• أقدام كثيرة تدمدم فوق الأرض ، سريره يهتز ، يد تهزه ، الممرضة تبتسم فى عينيه ، عدد من الناس يحيط بالسرير ،

عسكرى بوليس يحمل حقيبة منتفخة •• أفندى مترهل •• و ••
من هذا الذى يتوارى خلفهما ؟ •• الساكن المجاور ؟

ـــ أهلا وسهلا •• تفضلوا •

ـــ ابق مستريحا •• لا تجهد نفسك •

هكذا منعه الأفندى من النهوض لملاقاتهم • أسند رأسه على ذراع السرير : خير يارب » ، ونظر حواليه فى دهشة ، تحاول نظرته أن تلتقى بنظرة الساكن المجاور تريده أن يتكلم ••

ـــ هيه ، كيف الأحوال ؟

ابتسامة غامضة ، غمز برأسه الى الأفندى :

ـــ عال !

اقترب منه ، قال له ان الحاج يسلم عليه كثيرا ، لهجة الساكن المجاور لا تريحه ، الأفندى يتناول الحقيبة من يد العسكرى ، يسرع فى فتحها ، يستخرج أوراقا ، يفردها ، منظر الأوراق مفزع ، أخذ الأفندى يدون فوقها بعض الكلمات ، سن القلم يوخزه فى صدره ، صدره يعلو ويهبط ، الورقة تقترب من وجهه : محضر حجز ؟! ••

•• بصقة كبيرة تتجمع فى فمه ، ابتسامة لزجة مقززة تمتض بصقته على شفتى الساكن المجاور :

— حضرته محضر .. محضر من المحكمة !

— أهلا .. شرفتوا .

تشاغل الأفندى عن نظراته ، حجبها عنهم بالورقة والقلم

— جئناك لتشرف بتوقيعك على هذا المحضر !

— نعم ؟

— أما سمعت ؟

— آسف .

ورمى الورقة على طول ذراعه ، ثم اعتدل فى رقدته ، وأعطى رأسه للمخدة كأن شيئا لم يكن ، مئات الرءوس فوق أسرة العنبر ترتفع ، تلتفت نحوه ، تحاصره بفضول سمج ، المحضر يضع أوراقه فى الحقيبة ، يغلقها بسرعة تهديدية ، العنبر يتقلص ببطء ، الرءوس الملتوية تتقارب من بعضها أكثر ، أشعة العيون تتوهج فى بصره دفعة واحدة ، كل الأسرة تزحف ، قطارات من فرط سرعتها تبدو بطيئة جدا لكنها ستدهمه حالا ، الأشياء يتضاعف حجمها ، لعلها شاشة التليفزيون لم تنضبط بعد ، كل الصور تهتز وان ثبتت فعلى أشكال مشوهة فى أوضاع مقلوبة ، المحضر يخترق الطريق بين الأسرة ، ظهره عريض جدا يتمايل ويترجرج ، بالتأكيد ستيجرف الأسرة فى طريقه ، يداه تهتزان فوق أجساد المرضى ، العسكرى يسير خلفه ببطء ، فى كبرياء لا حد له ،

ويبدو كأنه يسير الى الخلف ، الساكن المجاور ينهض ، يريد أن يسلم عليه ..

ـــ انتظر أنت فبى حاجة اليك ..

عاد هو فارتكن على حافة السرير ، يريد أن يتحدث طويلا الى الساكن المجاور .. أنفاسه لا تساعده :

ـــ ما الحكاية ؟

شرد قليلا . قال ببرود :

ـــ ها أنت ترى !

ـــ هل اشتكانى الحاج ؟

ـــ هأنت ترى !

.. لماذا يقولها بهذا التشفى ؟! ..

ـــ والجماعة ؟

ـــ أى جماعة ؟

ـــ زوجتى .

ـــ مالها ؟!

ـــ ماذا فعلت .. ما هى أخبارها ؟

ـــ مسكينة !!

وابتسم ابتسامة صفراء ، العنبر يشتد اظلاما ، ضغطت

المرضة قشر برتقالة فى يدها وقذفته من الشباك ، استأذن الساكن المجاور وانصرف ، أقبلت نحوه المرضة ، أعطته نصف برتقالة ، شكرها ، سألها ان كانت قد تحدثت فى التليفون كما طلب منها أم لا ، قالت بأنها فعلت ، ولم تزد ! ، طعم البرتقالة مر ، رحيقها الذى كان حلوا تحول الى كمية من اللعاب الزائد ، ركنها بجانبه ، شرق حلقه ، أخذ يكح بشدة ، أسلاك الغرز تشرخ رأسه المفتوق : اذا وافق الظروف على الخروج من هنا بهذه البيجاما ، فهل سيمشى حافيا ؟ هل يمكن أن تتوطد العلاقة بينه وبين المرضة الى حد تنظيف البيجاما ، أو استعارة « زحاف » من عهدة المستشفى هل يمكن أن يتغافل ويمشى على أى وضع ؟ •• أغلب النظرات بالتأكيد لن تعرفه ، من الممكن استقلال تاكسى من باب المستشفى يختبىء فيه حتى البيت ، ما شكل وصوله اذن ؟ ، بل وأجرة التاكسى من سيدفعها ؟، ترى هل أكلت زوجته طوال هذه المدة ؟ : هل أشفق عليك أهل الخير مثلا ؟ آه يا قلبى ما اضطرابك هكذا تكاد تسقط من فمى ، ويا جنبى زغدة من هذه التى توجعك ، هون من انتفاضك يا جسدى فما بى قوة تتحمل الرعشة •• آه •• النار فى كبدى ، الحاج •• فلان الفلانى ، المحضر ، الساكن الجاور ، مجرى النهر يمكن أن يتحول فى غمضة عين بامكانيات الحضارة العظمى ، الكمسارى ، التمورجى ••

ـــ أستاذ ..

.. نعم ، الملاية .. الماء الزير الراديو التليفزيون ثلاجة فلان الفلانى الحواديت المسيخ الدجال المحقق السجان مقابر قريتى ..

ـــ أستاذ ..

.. نعم .. أمى .. أبى خالى الفلاح خالى المثقف بطل الأربعينات أخى شهيد الكوبري نعى أمى فى الجرائد قصيدتى المكسورة فى رثائها ..

ـــ خذ البطانية فوقك تدفئك ..

.. مهزلة المهازل يجب أن تنتهى الدنيا عند هذا الحد الواضح أن الانسان فى طريقه الى الانقراض ! ..

ـــ وخذ هذه أيضا فوق صدرك ..

.. الانفصال التوافق مع هذه الزوجة «شنبو فى المصيدة»، «الفيل فى المنديل» طفلى الحبيب يدخل الجامعة ، يصبح محاميا يدافع عن كل القضايا الخاسرة ، ويطردنى الساعى من مكتبه المكيف الهواء ..

ـــ أرنى قدميك .. أفيهما برد ؟

.. هربت زوجتى ، ارتعد السرير فطست البطة ، ذبحتها شهامة عقائدية ، استحلت لحمها المحرم رغم عدم نزول قطرة دم واحدة ..

ـــ قدماك دافئتان ••

•• باب المطبخ مفتوح على كل الأنوف ، الحلة تهوى من فوق الوابور النذل ، يندلق الطعام على رءوس الأشهاد ، يسيل على الأرض ، يحرسه الادام والزبد زبدة دمائنا ••

ـــ أما زال جنبك يوجعك ؟

•• أفواج الذباب تتوافد من كل بقعة ، تحط على طعام فطيس هبط على الأرض بلا ثمن ، ضرب حوله الحصار من جميع النواحى ، وهبطت العقول الى مستوى الصراع مع الذباب ، سما الذباب الى مستوى مباراة العقول فى الخطف والزوغان والتنطيط ••

ـــ على أى حال لا تخف •• كلها ظواهر طبيعة بالنسبة لهذه العلة ! ••

•• الألسن تلعق حتى تشبع ، تلعق السخرية قفاى ، زغردت صبايا الجارة غنت « روح ياسبع خدت نوارتنا » ، قالت حماتى انها تساوى رقبتى بشهادة الجيران ••

ـــ لن يعرف موضع الداء سوى الطبيب ••

•• قوة الرائحة تزداد بشاعة كلما تفشت فيها العفونة ، والنتانة تخرق الأبواب ، والجدران تنادى الكلاب لترتع فى الزئيط ، وتلغط وتنجس الأوانى ••

حالة خطيرة فيما يبدو ! ..

.. نخلة العكايشــة عصفت بها الريح ، نامت فى الطريق واعتلاها سفلة القوم طنغوا منها معدية يعبرون عليها الى البر الآخر ، أصبحوا بفضلها مقربين من التفتيش العالى ومع ذلك لا يكفون عن لعنتها لعنتها تصبح عقيدة ومبررا للعبور ومظهرا للمعرفة وانتماء أيضا ..

ــ ما رأيك لو أكلم الحاج فى التليفون ثانية ؟

ــ أكون شاكرا جدا ، اعملى معروف .

ــ ألم تهدأ بعد ؟

ــ اعملى معروف كلمى الحاج ، قولى له اذا سمح بـ ..

ــ يحضروا لك البذلة ؟ ..

ــ قميص وبنطلون .. و .. حذاء ..

ــ اطمئن .. سأفعل ..

***

ــ مساء الخير يا أستاذ .

ــ مساء النور .. هيه . ماذا فعلت ؟

تنهدت بحيرة :

ــ لا أدرى ماذا أقول لك ؟!

ـــ لم تكلمى الحاج طبعا ، لا عليك ، حدث خير على كل حال !

ـــ أنا لم أكلمه فقط ، بل ذهبت الى هناك بنفس !

ـــ ماذا ؟

وانتفض جالسا :

ـــ تقولين ذهبت الى هناك ؟! .. وبعد ؟ ..

ـــ لا أحد فى البيت !

ـــ خبر أسود .. كيف ؟ .

ـــ أخذت العنوان بالتليفون ، اصطحبنى طفل الى البيت ، لم أجد أحدا !

ـــ ولا فى الحارة كلها ؟

ـــ عجوز كانت تتقرفص فى صحن الدار ..

ـــ آه .. الحاجة الكبيرة .

ـــ مساء الخير يا حاجة ..

ـــ ياكريم .. استر عبيدك من الفضائح ياكريم ، بالطبع هذا ردها

ـــ أين سكان البيت يا حاجة ؟

ـــ ياسابل الستر يارب !

ـــ أين جماعة الأستاذ فلان ؟

ـــ لا اله الا الله !

ـــ أخذت نفسي وانصرفت ضائقة .

ـــ أشكرك على كل حال .

ـــ عموما ربنا يصلح الأحوال .

لهجتها تشي بعطاء ، فهل سيخرج من هنا مستورا ؟ . لم تجد فى شقته أحدا .. أين راحت زوجته ؟ .. فلان الفلانى يدير الهيئة العامة للشئون الخاصة بكفاءة نادرة ، هل يمكن للانسان أن يتفرغ للحياة فقط ؟ . الحياة سحر لذيذ يخدر الانسان الى الأبد ، قد تتوقف حياة الانسان لحظة أن يكتشف أنه يحيـا بالفعل ، الخيط الأبيض والخيط الأســود يجتمعان فى غرزة واحدة ، أيام طويلة قضاها هنا فوق هذا السرير لا يتحرك : لهفى عليك يا صغيرتى أين أنت الآن ؟ ماذا فعلت؟ كم أنا شغوف بمعرفة كل التفاصيل .. آه أريد أن أخرج الآن حالا وعلى أى وضع حتى لو كنت عاريا تماما ..

ما كان يدور له بخلد أن تجيء لحظة واحدة تكون هى ـــ رغم كل شيء ـــ بعيدة عنه ، معذورة هى لو أتت أبشع التصرفات ، الحق الذى تمنحه الظروف لصفها يئد فى أعماقه

كل بذور الثورة قبل أن ينمو فيها ، يدرك الآن أنه تركها فى لحظة الغرق ، تخلى عنك قاربك يا صغيرتى وما كان فى يوم من الأيام يملك تحقيق النجاة ، هو نفسه كان قاربا ضالا فى متاهة ظلماء ، آه من سكين مغروز فى صدرى ، ائتونى بأخبارها يا أبالسة الجحيم ، خبرونى عن حقيقة أرضها أين ذهبت ، دفينة هى أم مورقة ، فى القبر أو فى القصر أو فى الكوخ أو فى البحر دلونى بأسرع وقت ، ألعبت بك الأمواج يا صغيرة ؟ .. أكان قدك المياس يتهادى على فكاك الموج وراسك المسلوب تتناقله أكتاف الهوى تجيش به الرياح ؟ .. لابد أن تكون المعجزة قد وقعت ، لا معجزة بغير استمرار وجودك ! ، من غير المعقول أن تغفل عنك عين مجهولة ساهرة .. من تراه تلقف الرأس واحتضنه ؟ ، صدر من هذا الذى احتوى رأسك ياوردة ؟ .. أأستطيع أن أحنى الرأس شاكرا بصرف النظر عما كان يجيش بالصدر ساعة الانقاذ ؟ .. أيا كانت الشهامة فهى لا تخلو من أنانية فى أكثر الاحايين ترتفع شعلة الشهامة لحظة اندلاع الانانية فى أعماق الشجعان ! .. كثيرا ما نجح بعض الشجعان فى معارك الانتصار بانقاذ بعض الأشياء ثم اذا بالنهاية تعكس النتيجة ! ، كارثة الكوارث مع أى شجاع من هؤلاء أنه يظل فارس الميدان على طول الخط وربما الى الأبد ! ، كأنه كان ينقذ لنفسه لا للشهامة ما أنقذه ! .. ولم لا ؟ .. مبدأ معروف

ومتفق عليه فى كثير من البقع ، بقدر قيمة الانتصـــار يكون مكسب الشجاع ، الســـائد أن شجاعا من هؤلاء ينقذ الشىء ليسيطر عليه تماما ثم يحظى بتأييد الجميع ! •• مهما يكن من أمر فلا بد أن تكونى موجودة يا معذبتى على قيد الحياة أما كان الواجب أن تسألى ؟ ولو مجرد السؤال ، ولو بدافع المعرفة على الأقل ، لكن •• على من تسألين ؟ •• الناس عادة لا يسألون الا عمن يفتقدونه فى حياتهم •• كنت فى حياتك شيئا لا أهمية له على الاطلاق ، بل كنت ظلا ثقيلا بلا شك ، لا بد اذن أن يكون الضوء قد انحسر عليك الآن ، صغيرتى •• معذبتى •• أنت حقيرة غاية الحقارة ، صدقينى •• لم أر فى حياتى كتلة ثلج باردة مثلك يابنت ،الثلج يبالى وأنت بالتأكيد لا تبالين ، الثلج يذوب لأنه يتجاوب مع كثير من العناصر التى تملأ الفضاء وأنت تزدادين تجمدا على تجمد ، اللعنة عليك أنت وحدك وليس على أحد سواك ، تاريخ تعاستى يوم كتب المأذون اسمك بجانب اســـمى يوم التفت حول أصبعى يوم حملتك حافظة نقودى الكئيبة فى جيبى الخاوى •• من أنت لا أدرى •• لست أرى لك شبيها فى « اللا مبالاة » وموت الأحاسيس •• اللعنة •• اللعنة •• اللعنة •• عليك وعلى وعلى كل شىء ••

أقبلت الممرضة نحوه ، وجهها يفيض بالبشر ، خير ان شاء الله ؟ ••

ـــ خلاص •• تدخلت الظروف لانقاذ موقفك •

ـــ هل حضرت زوجتى ؟ ••

ـــ بل حضرت عربة الاسعاف ! •

ـــ ••••

ـــ أقصد أنها ذاهبة الى مكان قريب من حيكم •

ـــ عربة الاسعاف أتت •

ـــ لم يمانع رجالها •• نظرا لظروفك الخاصة !

ما أروع هذه الفتـــاة ، تلهث فرحة كطفلة سعيدة بهدية بديعة •

ـــ على فكرة ، لقد تعرفوا عليك ، فهم الذين جاءوا بك ليلتها •

ومضت تهرول سعيدة مرحة •

لم يكن يعرف أن ملابسه نظيفة هكذا الا الآن ! ، وضعتهم المرضة أمامه وقالت له مع ابتسامة خجلة انه يجب أن يقوم ليغتسل ويخلع ثياب المستشفى •

- ٥ -

أصرت عربة الاسعاف على عدم تجاوز منطقة العمران ، لم تقبل المخاطرة بالخوض فى هذه التضاريس المبهمة المظلمة ، طلب من السائق أن يقربه على الأقل من المساكن ، وليكن عند نهاية الطريق المرصوف ، ولا بأس من أن يتوارى هو فى الظلام بقية المشوار . أشعل السائق سيجارته الأخيرة ، وقذف العلبة فى وجه الطريق لاعنا أباه وأبا الظروف التى جعلته يستعبد المخاليق هكذا .

ففتح الباب ونزل . تلقت الريح بقايا شكره وعزومته على رجال الاسعاف بالتفضل ، فبعثرتها خلف العربة التى انطلقت بأقصى ما فيها من نرفزة .

تخطى شريط السكة الحديد ، جاس خلال المساكن ، الليل يتقمص الجدران والعواميد والأشباح ، هو يبحث فى وجوه

الليل عن عيون تبرق حوله وتخترقه و تتعرف عليه • رغم انسدال
الجفون على كل شيء راح يقذف الخطوات خلفه كالمطارد ،
وتغوص قدمه الحافية فى رمال وأكوام زبالة ،عند مدخل الحارة
لذ له أن يتوقف برهة ، هكذا أغرته غفوة الليل على عتبتها ، يخيل
اليه أنه سيرى زوجته فى واحد من هذه الأشباح ، سيراها حتما،
يجزم أنها ستخرج الآن من احدى عيون الليل ! سيرتفع عنها
أحد الجفون الساجية • الكارثة عظمى اذن ! لحظة انفراج الجفن
عن زوجته لا بد يكشفه • يجب أن يمضى ، مدخل البيت تغير
•• هكذا فى بضعة أيام ؟! ، صدغان طويلان بنيا على جانبى
الباب وربط بينهما باب حديدى يطابق أبواب أحواش الفلل ،
البيت فى خلفية الحوش ينام ـــ بدوريه ـــ فى سواد كئيب •
شبابيكه العليا مغلقة من جميع النواحى ، شبابيك الشقة المقابلة
تخطط الليل بخطوط مستطيلة صفراء ، أصوات أنغام وأحلام
متسللة قادمة من فتحات الشيش ، ما هذا ؟ • أيعقل أن ينسلخ
الساكن المجاور من جلده فى بضعة أيام قليلة ليصبح شخصا آخر
غير الذى كانه ؟ يعيش ليله هكذا كما ينبغى ، موسيقى وأحلام
ورقص ؟ ، يجزم هو أن بالشقة الآن رقصا يدور بالفعل •
طرقات مفاجئة • يجزم أيضا أنها ثمالة الكئوس تصطك بأسطح
المناضد • ضحكات ؟ ونساء أيضا ؟ ضاع كل شيء اذن ، هذا
البيت بالتأكيد ليس بيتهم ، يذكر أن بيتهم كان قبل أيام مضت

ذا هيبة ووقار ، لا يمكن أن يكون صوت زوجته فى هذه الضحكات الرائقة ، الرقيقة الى حد الميوعة ، لا يمكن أيضا أن تكون فيها زوجة الساكن المجاور ، لا ولا أى من أصوات الحى فى هذه الضحكات ، أى انقلاب حدث فى هذا المكان ؟ • انفتح أيها الباب بسرعـة •• لا « تعصلج » هكذا فليس فيه من أعصاب ، يريد أن يصعد حالا الى شقته ، الى بيته ، يريد أن يتوارى ، أن يرسو على أى شاطىء ، غريب ، الباب اذن مغلق بالمفتاح وليس بالأكرة فقط ؟ • ما العمل اذن ؟ ، من سيسمعه وسط معمعة الرقص وثمالة الضحكات ؟ ، ستحوجه الى النداء يانذل ؟ ، أنت الآخر أيها الباب تصر على أن تكشفه وتفضحه ؟• أيكون أكثر صفاقة منك فيتسلق أحد هذين الصدغين ليهبط فى الحوش مثل المتسلقين المحترفين ؟ ، ربما فى الأمر مكيدة ، ربما أيضا يكونون معذورين فهم لم يعلموا بقدومه • أى سخف هذا الذى يفكر فيه ؟ ، يجب أن يتصرف حالا وبأى وضع ، ماذا اذن يكون التصرف ؟ ••

•• تعب من الوقوف بهذا الباب الحديدى ، تعب أكثر بما يتصاعد من فتحات الشيش • المشى جيئة وذهابا هكذا لا يجدى ولا يجر الأفكار من عقالها ، دعك من أسلوب التفكير المكتبى ، فهل أجداك فتيلا طول تجوالك فى عمق الليالى ؟ •• كنت تنقب عن الأفكار ، لم تفلح فى شىء أبدا ، لديك موهبة جبارة فى كتابة

كل ما يروج للكساد فى حياتك ، حكمتك أيها الكاتب العبقرى ليس لها ثمن فى الأسواق السائدة .. فكرتك أيضـا منبوذة ومهزأة ، كتابة التفاهات موهبة خص الله بها بعض المحظوظين .. أدراج مكتبك محشوة بصفحات من الليالى السود فوق صفحات تتكوم وتدمغك بالغفلة يا فاشـلا فى ترويج نفسك ، مسكين فكرك لم يملأ بطنك ، ما قيمة القيمة فى حيث لا فهم يحـدد القيمة ؟ .. قد تكون أنت وحدك الذى يتوهم أن ثمة قيمة ما فى أعماله الفنية ـــ العظيمة ـــ هذه ، ما قيمة قيمتها يا هذا ؟ مجرد أوراق سودتها الدماء بسن الأعصاب ، يقول أحد الخارجين من حجرة الصراف وهو يضغط بأسنانه على الفم الذهبى ان الورقة الواحدة من كتاباته ـــ التى كتبها اليوم وهو ينتظر شـاى الصباح ـــ بيعت بالشىء الفلانى وأنه طامع فى المزيد فما ألذه من طموح .. ذات يوم قال لك : دعك من المثاليات وابحث عن رزقك فانك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، حتى لو طاوعته وطرقت أبواب الذهب فبالتأكيد لن تعرف كيف تطرقها ..

.. وبعد أيها الباب الحديدى؟ أيلذ لك أن تشهد الناس على عريه ؟ ، لا يدرى كيف صعد ذلك الولد الطويل ذو الجاكت الشمواه والسوالف الطويلة ، رآه مرات معدودة ، فى الأولى كان يتشاجر مع جرسون البوفيه ، فى الثانية يلعب الطاولة مع أحد الممثلين الناشئين ، فى الثالثة يسوق عربة ممثل صاعد ، فى

الخامسة يصطحب كوكبة من الفتيات الحسناوات يدور بهن فى المكاتب ، فى السادسة يقف على المنصة مضطلعا بدور بطولة ، ثم لم يعد يراه الا صورا معلقة فى الأفيشات العامة ..

— دمْ دمْ دمْ .. دمْ .

صوت الطرق ينداح فى أحشاء الجبل وأبدا لا يتلاشى صوت المرح القادم من فتحات الشيش ، صديقه الذى لفظه منذ شهور ملأ الدنيا بالأغانى لكل الكادحين ، ليكتمل بيته بالثلاجة والتليفون ، صعد فوق رزم الفلوس الى قمة شاهقة : جئنا من القرية معا فى فمنا نفس الكلمة وفى وجداننا مصير البشر ، هو الآن يقابل علية القوم ويعاشرهم أما أنا فلا يزال السعاة يحتجزوننى على أبواب المكاتب ..

— دمْ دمْ دمْ دم دم . دم . دم . دم . دم . دم .

فلان الفلانى فى الشقة الأرضية المقابلة له الآن ، وأنغام المرح تتصاعد من الدور العلوى من شقة الساكن المجاور ، أليس للوجود أذن واحدة ، الجبل يصرخ مع طرقاتى وينبح بصوتها ومع ذلك لا أحد يفتح الباب ..

— دمْ دمْ دمْ دم دم . دم . دم . دم . دم . دم .

— من الطارق هكذا ؟

.. أشهد أن لا اله الا الله ..

ــ أنا فلان يا ست فلانة •

ــ يوه •• حمدلله على السلامة •

ــ متشكر •• منذ متى أقيم هذا الباب ؟

ــ طول عمره هنا !!

ــ كيف •• انني لم أره الا الآن !

ــ أخارج أنت لتوك من المستشفى ؟

ــ نعم •• كما ترين :

ــ كان الله فى عونك ، ولماذا تخبط على الباب هكذا ؟

ــ اضطررت الى ذلك ، فمنذ وقت بعيد وأنا أطرق دون أن يسمعنى أحد ، ضحكت الملاية ، تجاوزت عتبة دارها المجاورة ، مضت نحو الباب الحديدى ، سربت يدها خلال قضبانه ، سحبتها ثانية حاملة « أكرة » مربوطة فى خيط دوبارة، أدخلتها فى الباب وفتحته ضاحكة ، اندفع هو يجرى داخل الحوش ، ثلاث قفزات فقط بعدها وقف على باب شقته ••

ــ طم طم طم •• طم •

ــ لا تتعب نفسك •• فلا أحد هنا •

•• الملاية خلفه ؟ يود لو يصفعها ، فى نفس الوقت يود لو تبقى ليعرف منها ••

ـــ أين جماعتى ؟

ـــ هنا .

وأشارت الى باب الشقة المجاورة .

ـــ هنا ؟ ، ماذا تفعل هنا ؟!

ـــ تتفرج على التليفزيون .. عند « فلان الفلانى » !!

وأضافت بعد برهة :

ـــ هى الآن شـقته . والذى كان يسكنها نزل الشـقة السفلى ! ..

***

ـــ .. !! .. !! .. !! .. ! .. ؟؟ ..

***

ـــ طلقنى .. افسخ الورقة التى كانت بيننا .. لن أقع فى حبائلك مرة أخرى ! ..

***

ـــ .. !! .. !! .. ؟؟ ..

***

ـــ شف يا أستاذ .. الى هنا وكفى .. عوض الله على فى ايجار الشهور الماضية .

ـــ وأشيائى .. ممتلكاتى الخاصة ؟

ـــ أشياؤك أوراق بعنا فيها المزبائن •• هـــذا ما كسبناه منهـــا •

ـــ والعفش •• وزوجتى ؟

ـــ العفش وصاحبته تقابلا •• ومضيا فى طريقهما !

ـــ لكننى سمعت صوتها •• و ••

ـــ لا شأن لى ، أنت ! ••

•• ؟؟ ••

ـــ باعتبارى مديرا للهيئة العامة للشئون الخاصة ، يهمنى أن أداوى ما أحدثته أنت بالآخرين من جـــراح • أعرف أنك تحقد على • لكن أعرف أيضا أننى لست مدانا !

***

الشارع العمومى الكبير يكتظ بالضجيج ••

ـــ مساء الخير يا أستاذ •

ـــ من •• أنت ؟

ـــ منذ مدة لم نرك •• أين تسكن الآن ؟

ـــ لعلك مرتاح فى الشقة السفلية •

ـــ ورد •

ـــ ولعلك على علاقة طيبة بالحاج •• و «بفلان الفلانى» •

ـــ نعم وبالست أيضا •• انها سيدة بمعنى الكلمة ! •

— ألم تسافر الى بلدها بعد ؟

— منذ رحيلك وهى تنتظر ورقة الطلاق .. لا حديث لنا فى السهرة غيرها ..

كم هى مديرة سهرات بارعة !

— الملهى عامر كل ليلة ؟

— ربنا يديمها شقة فلان الفلانى ! .. العامرة .

— تقصد شقتك السابقة ؟

— وشقتك أيضا .. أما علمت ؟

— ماذا ؟

— دخلت المياه والشقتان أصبحتا شقة واحدة .

جميـــل !

— وكل ليلة نتعرف على مزيد من الأصدقاء .. العاملين فى الحقل !

— رائع !

— على فكرة . فلان الفلانى تبنى قضـــية الست وهو يناضل الآن من أجلها ! .

— وأنتم ..

— .. لقد أعطته توكيلا رســميا عاما بالتصرف فى كل شئونها .. ألم يصلك الاعلان بعد ؟!

— بالضرورة سيصلنى !

— على كل حال فالقضية لا تزال قائمة .. ويبـدو أنها ستطول وتطول !

— بينى وبين زوجتى ؟

— وبين فلان الفلانى .. والحاج أيضا !

ركب عربة ذات حزام أصفر .. اختفى ..

الشارع متخم بكل ما فى جوف الحياة من أسرار .

زحمة الشارع تكتم أنفاسه ، ضل الطريق ، الخـواء فى جوفه ، موج دافق على الرصيف لا قبل له بمقاومته ، يريد أن ينسحب قليلا من وسط هذه الأمواج البشرية ، فقط ليلتقط أنفاسه ، سرعة الموج تلفظـه ، تتلاعب به ، تبتلعه وتلفظـه ، وجوه مجنحة تندفع نحو أهداف مجهولة ، لطمته بأكتافها فى صدره ، تهاوى ، استند على عامود النور ، جلس فوق سور الرصيف ، اثنان يراقبانه من بعيد ، اقتربا منه ، سألاه عن بطاقته الشخصية ، لم يرد ، فى ذهنه آلاف الردود ، لكنه سأم ، فليس لديه حماس حتى فى تحريك شفتيه ، وحينما زغده أحدهما فى صدره ليرد ، نظر اليه ببلاهة ، ونبح الألم فى أعمـاقه ، لكنه — أيضا — لم يجد حماسا للصراخ .

تمت

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٤٢٦/١٩٧١



الثمن ١٥ قرشا

الهيئة المصرية العامة لل...